رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

فخري كريم

ملحق اسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

العدد (2062) السنة الثامنة
الإثنين (7) اذار 2011

12
قراءة في مذكرات (الخاتونة) مس بيل عن العراق

ماذا جرى بين نوري السعيد وجمال عبد الناصر

مساجد سامراء العامرة

ماذا جرى بين نوري السعيد وجمال عبد الناصر حول معاهدة التضامن العربي..

المعاهدة التمهيدية بين مصر وبريطانيا: وفي 27 يوليو سنة 1954 عقد إتفاق تمهيدي بين بريطانيا ومصر فيما يتعلق بقاعدة قناة السويس والجدير بالذكر هو أن المادة الأولى فيه تعالج موضوع إنسحاب القوات البريطانية من الأراضي المصرية... كما أن المادة الرابعة تبين الظروف التي يمكن للقوات البريطانية أن تعيد إحتلالها لقاعدة القنال في حال وقوع هجوم سوفييتي على تركيا. وفي 4 آب سنة 1954 عاد نوري السعيد للحكم، وكان يتابع عن كثب الإتفاقية التركية الباكستانية المعقودة يوم 2 أبريل، والإتفاق التمهيدي الذي عقد بين مصر وبريطانيا حول قاعدة قناة السويس.. وإذا بوزارة الخارجية في بغداد تعلق بأن صلاح سالم وزير الإرشاد القومي مع وفد مكون من عشرين شخصاً سيزورون الملك فيصل وولي العهد الأمير عبد الإله في مقرهم الصيفي في سرسنك...

ويبدو لنقاش الاتفاق التمهيدي الذي عقدتهُ مصر مع بريطانيا حول قناة السويس كان هو الدافع الذي جعل مصر تقترح عقد إجتماع لبحث العلاقات العربية.

× محادثات سرسنك: واستغل نوري السعيد هذه المناسبة أثناء المباحثات لاستعراض السياسة الخارجية للعراق وبحث الخطر الشيوعي المتواصل الذي يهدد من الشمال، ثم تطرق الى السياسة بالصراحة والروح الأخوية كما قرر الطرفان تنظيم التعاون من جهة وتحديد موقف العرب في القضايا الدولية من جهة أخرى وهنا تتحتم الإشارة الى النقاط التي تم الاتفاق عليها بين الفريقين وهي تتلخص في:

(١) تقوية ميثاق الضمان الإجتماعي.

(٢) التعاون في مكافحة المبادئ الهدامة بتبادل المعلومات مع الخبراء العراقيين حول الموضوع.

(٣) التفكير في إعادة تنظيم السكرتارية العامة للجامعة العربية.

(٤) تبادل المعلومات في الشؤون الاقتصادية والثقافية والاجتماعية.

وعند إنتهاء المباحثات تفاءل الجميع خيراً نظراً للروح الودية التي رافقت المباحثات.

× كتاب سري من نوري السعيد الى عبد الناصر:

ويتحتم علينا في هذا المقام الإشارة الى الخطاب الذي أرسلهُ نوري السعيد الى جمال عبد الناصر بيد صلاح سالم على اثر انفضاض اجتماع سرسنك في العراق عندما شعر بأن الرئيس المصري تنصل من الإنتماء لميثاق بغداد وأنه يصر على إحياء معاهدة (التضامن العربي) فقط لصد هجوم اسرائيل. كان العراق يخشى بأن الجبهتين الروسية والإسرائيلية على حد سواء عندما فكر في انشاء ميثاق بغداد، وكان يعلم الى جانب ذلك أن إمكانات العرب العسكرية محدودة فأراد أن يطمئن على قوة الدفاع الذي تستطيع مصر أن تقدمهُ وقت الحاجة كما أظهر استعدادهُ لتجميد ميثاق بغداد إذا تأكد من ذلك.. وفيما يلي ما كان يتضمنه الكتاب الذي حمله صلاح سالم الى مصر: قال أن العراق على استعداد لأن يعلن تجميد عضويته في حلف بغداد اذا تقدمت القاهرة بمشروع معاهدة عسكرية جديدة قادرة على أن تضمن للعرب من القوة والأسلحة والجنود المدربين ما يمكنهم من التصدي للأخطار الصهيونية والشيوعية على حد سواء. وأن تكون هذه المعاهدة جادة فيً أن يحمل العرب مسؤوليتهم على الصعيد العسكري بحيث تتوحد القيادات والتدريب على كافة المستويات. لقد ظنّ صلاح سالم عند تسلم هذا الكتاب بأنه نجح في مهمته نجاحاً ملموساً وأعلن عن تفاؤله نتيجة اجتماع سرسنك... ولكن يبدو أن الرئيس لم يوافق على تصريحاته العلنية في هذا الشأن فكانت النتيجة أن السلطات في مصر أوقفتهُ في المطار وحينئذ انتشر خبر وجود انقسام في صف أعضاء القيادة. فتلاشى التضامن العربي الجماعي العسكري المنشود وزادت الخلافات في أرجاء المنطقة والسر في ذلك تسرب الضغط الروسي على القيادة في ارجاء وادي النيل.وعند عودة صلاح سالم الى القاهرة أشيع في الأوساط السياسية بأن توقيفه تم فور وصوله الى المطار، كما تم التحقيق معه حول التصريحات التي أدلى بها أثناء محادثات سرسنك. وفي ذلك ما يبيّن لنا جلياً أن اعضاء القيادة أنفسهم كانوا تحت الرقابة إذ كان عليهم تنفيذ السياسة المرسومة فقط دون أي تصرف داخل المنهج المحدد.

× الأخطار التي كانت تواجه الشرق الأوسط: من مخلفات الحر ب العالمية الثانية ظهرت تيارات سياسية وعقائدية ومذهبية مختلفة في ربوع المنطقة التي تمتد ما بين النهرين من نهر الأندوس في الشرق الى ضفاف البحر الأبيض المتوسط غرباً ... وقد شعرت اغلب البلاد الكائنة في أرجائها ما يهدد الاستقرار فيها- كانت بلدان النطاق الشمالي وفي مقدمتها باكستان وتركيا وإيران تخشى من تسرب النشاط السوفييتي الى بلادها وذلك بانتشار وسائل الحرب الباردة، في حين كانت البلاد العربية ترى في اسرائيل خطراً مباشراً على كيانها ولا تنظر الى الخطر السوفييتي بعين الإهتمام، بل تعتقد في مساندة العرب وفي غض النظر عن التوسع الصهيوني على حساب العرب هو الخطر الداهم الذي يهدد الأمة العربية.

والى جانب هؤلاء نجد أن بعض الأمم القاطنة في تلك المنطقة كانت تجاهد بشتى الوسائل

يبدو أن الرئيس لم يوافق على تصريحاته العلنية في هذا الشأن فكانت النتيجة أن السلطات في مصر أوقفتهُ في المطار وحينئذ انتشر خبر وجود انقسام في صف أعضاء القيادة. فتلاشى التضامن العربي الجماعي العسكري المنشود وزادت الخلافات في أرجاء المنطقة والسر في ذلك تسرب الضغط الروسي على القيادة في ارجاء وادي النيل.وعند عودة صلاح سالم الى القاهرة أشيع في الأوساط السياسية بأن توقيفه تم فور وصوله الى المطار

للتخلص من براثن الإستعمار لاكتساب سيادة بلادها الكاملة.. كمصر بالنسبة لقناة السويس والعراق للحصول على جلاء المملكة المتحدة من قاعدتي الشعيبة والحبانية .. ولكن مما يدعو الى الأسف.. هو أن بعض الدول المذكورة كانت تسعى فقط الى إتقاء الأخطار القريبة الداهمة دون التفكير في ايجاد سياسة طويلة الأمد لوقف مد الأخطار القريبة والبعيدة على حد سواء.

× رأي نوري السعيد في الدول الإستعمارية:

والجدير بالذكر في هذا المقام هو أن نوري السعيد كان الوحيد من بين أقطاب العرب الذي أدرك أهمية التضامن مع أمم مجاورة مستقلة ذات سيادة تدين بنفس المبادئ للمحافظة على سلامة المنطقة من كافة النواحي.. فتجاربه الطويلة في ميادين السياسة الدولية منذ يقظة العرب وثورة الحسين المشهودة، ومرافقته الدائمة للأمير فيصل بن الحسين أثناء محادثاته المتعددة التي كان يجريها مع أقطار الغرب لتحرير البلاد العربية، جعلته يتفهم عن كثب نفسيتهم وأهدافهم الخفية. كان يقول مثلاً بأنه لا يثق كثيراً في وعود الإنكليز، فهم يماطلون في مساوماتهم في الأمور التي تتعلق بمصالحهم، وقد إندس الى جانب ذلك في صفوف أجهزتهم السياسية منذ تقلد "دزرائلي" الرئاسة عدد من بين الذين يخدمون المبادئ الصهيونية.. ولكن الإنكليز كانوا حسب تقديره أرحم من الفرنسيين في تطبيق قوانينهم الإستعمارية فالإستعمار البريطاني يهدف قبل كل شيء الى المحافظة على المصالح التجارية الخاصة بالإمبراطورية البريطانية في حين يجتهد الفرنسيون في دمج وفرض القومية الفرنسية على الشعوب المستعمرة بشتى الأساليب. وبالإجمال كان نوري السعيد يؤمن بأن البلاد التي تدين بالديمقراطية أهون شراً من الدول التي تتمسك بالعنصرية كالنازية والصهيونية. أو تمارس دكتاتورية صارمة. أو تتبع نظم الشيوعية التي تجعل من الإنسان آلة صماء في جهاز الدولة. والمعلوم أيضاً هو أن نوري السعيد كان معاصراً لحركات تحرير البلاد العربية ويتتبع دائماً ما يجري فيها عن كثب... وبالإضافة الى ذلك كان العراق متجاوراً مع تركيا وايران. ويعلم المطلعون بأن اغلب الاتفاقيات التي وقعت بين العراق وجارتيها. تمت أيضاً على يد نوري السعيد وكذلك الباكستان. فعلاقاتها مع العراق منذ التقسيم كانت تزداد وثوقاً على مر الأيام- وبناء على ذلك يجب الاعتراف بأن نوري السعيد كان خبيراً بكل ما يدور في هذه المناطق. ويتتبع باهتمام تطور الأحداث فيها.. وأنه كان خير من يستطيع تقدير الأمور الجارية في أرجائها بصورة دقيقة.. فالخبرة والتجارب خير موجه لرجال الدولة- وخير ضمان للمحافظة على سلامة البلاد.

× الطرق التي أراد نوري السعيد إتباعها لمواجهة الدفاع عن المنطقة: كان نوري السعيد يعلم أيضاً بأن ليس بين الدول الآسيوية أو العربية من تستطيع بمفردها مجابهة الأخطار المحيطة بها مادياً أو عسكرياً.. وقد أثبتت تجربة الحرب الإسرائيلية سنة ١٩٤٨، وأحداث ايران في عهد مصدق، ومآسي التقسيم بين الهند وباكستان. صدق هذه النظرية... فعندما تولى نوري السعيد رئاسة الوزراء في سنة ١٩٥٤ وجه إهتمامه لتثبيت قواعد الاستقرار في المنطقة نظراً لتدهور أحوال الأمن فيها، وبعد الإطلاع على مجرى التيارات الهدامة التي كانت تشكو منها باكستان وتركيا وايران وبعد تقدير ما كانت تضمره إسرائيل من جهة أخرى في الجبهة العربية، شعر نوري السعيد كخبير سياسي وعسكري بأن مصير هذه الرقعة الاستراتيجية التي تضم البلاد العربية والآسيوية في خطر داهم.. فهي بين أنياب كماشة تضمر سحقها في أي وقت. وبناء على ذلك بدأ يفكر جدياً في هذا الامر لعلهُ يهتدي الى حل جماعي مناسب لمواجهة الأعاصير المقبلة قبل ضياع الفرصة.

× طلائع الميثاق الدفاعي للشرق الأوسط: وجد نوري السعيد في ميثاق النطاق الشمالي الذي إبتدعتهُ أمريكا بايحاء من (دالاس) وزير الخارجية مثالاً يحتذى به إذ كان الهدف من هذا المشروع حماية دول تخشى الإعتداء بتسرب النشاط السوفييتي الى بلادها، وكان في مقدمة الدول المذكورة باكستان وتركيا وايران، وبعد الإطلاع على تفاصيل ميثاق دفاع النطاق الشمالي والإتفاقية التي أبرمت بين تركيا وباكستان فكر نوري السعيد في تشكيل ميثاق دفاعي أوسع نطاقاً يضم البلاد الآسيوية والدول العربية على حد سواء، بشرط أن يكون مستنداً الى المادة (٥١) من ميثاق الامم المتحدة. ومتضمناً الشروط التالية:

(١) أن تكون الدول المنتسبة اليه على قدم المساواة.

(٢) أن تنتظم العلاقات الودية بينها في المجالات السياسية والعسكرية والثقافية والاجتماعية على حد سواء...

(٣) أن تتخذ إجراءات جماعية للقضاء على الاعتداءات ومناورات الحرب الباردة في المنطقة.

(٤) العمل المشترك في سبيل تأمين الرخاء والاستقرار في أرجائها- فالحكمة تقضي بتوثيق مجالات حسن التفاهم بين أمم وفئات أثبتت منذ قديم الزمن استعدادها الفطري للتنافس والتناحر... كما أن التضامن لحمايتها من مشاكل الطائفية والمذهبية والعنصرية هو امر حيوي واجب إنساني محتم يعتمد على التعاون باخلاص بين الأطراف جميعاً.

× الغاء المعاهدة الثنائية بين العراق وبريطانيا: وكان نوري السعيد يعتقد بأنه لا يمكن لمثل هذه الكتلة أن تنجح الا اذا كانت قوية أو تعتمد على مساندة أمم قوية دون شروط أو قيود... لتبقى حصناً مستقلاً صامداً ينعم بالحياد الإيجابي ويتفرغ لحفظ سلامة البلاد المنتسبة اليه فقط. ومن الشروط التي تمسك بها نوري السعيد لضمان مبدأ المساواة بين الدول المنتسبة الغاء المعاهدة الثنائية بين العراق وبريطانيا منذ سنة ١٩٣٠. وكان يتمنى أيضاً أن تنتسب مصر الى الميثاق الجديد للحصول على الجلاء التام عن قناة السويس دون قيد واتفاقية ثنائية أخرى. أما خير ما كان ينتظره من ابرام هذا الميثاق الدفاعي الجديد فهو شل أية حركة اعتداء تصدر من اسرائيل.. فقاعدة الميثاق مثبتة على البند (٥١) من ميثاق الأمم المتحدة وهو يفرض التضامن الكامل بين اعضاء الميثاق في حالات الاعتداءات الخارجية. ويبدو أن فكرة المشروع الدفاعي المقترح قوبلت في حينها بمنتهى الترحيب من قبل الدول الغربية وعلى الأخص بريطانيا وأمريكا. إذ كان حرص تينك الدولتين شديداً على مصالحهما في الجبهة الشرقية، وكانا يتمنيان دوام الإستقرار في ارجائها. لم يكن في ذلك الوقت بين دول تلك المنطقة الثائرة على الدوام ما يضمن احلال السلام فيها نظراً للمشاكل المحلية والدولية التي تحيط بها. ومما زاد الطين بلة الصراع الذي نشأ بين العرب واليهود بعد تقسيم فلسطين. ولذلك بدأت الدول الكبرى محاولات تسعى الى إحلال حُسن التفاهم في المنطقة.

× إسرائيل تشعر بالخطر: لم ترق فكرة المشروع الدفاعي المقترح لإسرائيل إذ رأت فيه تهديداً صارخاً لتثبيت كيانها. كما وجد السوفييت في تلك الكتلة المتماسكة سداً يقضي على آمالهم التوسعية- ومن ثم بدأت المناورات الخفية تبث الشكوك والظنون وتثير الفتن حول النيات المقصودة التي أدت الى إنشائه. وذلك في سبيل احباط حماس الدول القوية التي أظهرت استعدادها لمساندة المشروع من جهة، والقضاء على وحدة الصف العربي من جهة أخرى ... وسنروي فيما بعد... على هامش الأحداث... بعض المحاولات السرية التي بذلتها العناصر الهدامة في هذا السبيل.. والتي اضاعت من جرائها الأمة العربية وسائر اقطار المنطقة في الشرق الأوسط فرصة ذهبية لا تعوض... فرصة كانت ترمي الى تحقيق الاستقرار والإزدهار للمنطقة بأسرها، وتضع الدول الكائنة في نطاقها على قدم المساواة مع أرقى الشعوب في العالم ضمن ميثاق متوازن مبني على أسس ميثاق الأمم المتحدة.

× الميثاق المقترح ودستور الجامعة العربية: كانت النقطة التي يستوجب حلها عند مناقشة موضوع الميثاق الجديد هي ايجاد كيفية لضمان ترابط الميثاق المنتظر بدستور جامعة الدول العربية.. فاقترح نوري السعيد الأسس التالية لبناء صرح الميثاق المذكور. كانت المادة (٥١) من ميثاق الأمم المتحدة في نظره القاعدة المثالية أو بالأحرى القاسم المشترك الذي يستطيع أن ينسجم مع الإلتزامات القانونية التي ترتبط بها كافة البلاد المعنية. فالمعلوم ان ميثاق الضمان الاجتماعي والدفاع المشترك العربي يستندان الى هذه المادة من جهة كما اعترفت ايران وتركيا وباكستان بسلامة هذه القاعدة كأساس مشترك من جهة أخرى. وبالإضافة الى ذلك كان نوري السعيد مطمئناً لهذا الحل بالنسبة للعراق والتزاماته.. إذ لم يكن في بنود المادة أي عائق سياسي يحول دون التوقيع على الميثاق مع دول غير عربية. ويقتصر على الدفاع والتعاون الاقتصادي. وفي هذا المقام يجب الإشارة بأن العراق لم يكن الدولة العربية الوحيدة التي وقعت اتفاقيات مع دول غير عربية، إذ سبق لعدة دول عربية أخرى ابرمت اتفاقيات مماثلة.

* مجلة افاق عربية 1986

طقوس غريبة على روابي (حمرين)

عمران الشبلاوي شاب بغدادي قاوم الانكليز واستقر جسده عند جبل حمرين!

جواد كاظم البيضاني

في منطقة سميت قديماً (كوردله)، وعند سدة حمرين انتصب مزار (قبر) ، يمارس الوافدين طقوساً تتسم بالغرابة وتختلف جذرياً عن الشعائر المتبعة في الأضرحة المقدسة ..فما قصة هذا المزار ؟ وكيف يمارس مريدوه وطقوسهم ؟

قبل الاجابة عن هذين السؤالين لابد من التعرف على صاحب هذا القبر (المزار) ، فالرجل لم يكن هاشمي النسب ، ولم يكن من الزهاد او العباد .. بل مارس حياته كباقي عامة الناس الا انه جسد معاني الرجوله والمروءة والإيثار وحب المساعدة فأصبح مثلاً يحذى به ..

الاشخاص الذين يفدون هذا القبر ربما لا يعرفون الاسم الصريح لصاحبه واكتفوا بكنيته (عمران الشبلاوي) فمن هو عمران الشبلاوي؟

انه عمران عيسى حمود النجم القيسي ، لقب بالشبلاوي نسبة الى منطقة (البو شبل) الواقعة في شارع غازي ببغداد ، اذ بدأت حكاية الشبلاوي عندما كان صغيرا لم يتجاوز الثامنة عشر من العمر ، حيث تبرع بريع البساتين الاربعة التي ورثها من والدته امينة علوان النجم التي عرفت ببساتين (السودة) بمحافظة ديالى الى الفقراء من اهل محلته او ابناء قريته التي ينحدر منها حيث سطر معاني الكرم والسخاء بعينه ، وكان مثالاً يحتذى به في معاني الجود التي وصف بها العرب يوم كان العراق خلال تلك الفترة يمر بمرحلة دقيقة من تاريخه ، فالحرب قد اندلعت وتمكنت القوات البريطانية من اجتياح بغداد.

كان الشبلاوي ابن العشرين ربيعاً قد حمل هموم الفقراء وبؤس الاطفال والاحتلال الذي اجتاح بلده .

قرر الشبلاوي قتال الانكليز دون الاعتماد على اية مساعدة من احد وبدأ يقود وحدات صغيرة من المقاتلين حتى اثقل الانكليز بالخسائر الامر الذي دفعهم لاقاء القبض على شقيقتة (كطاية) وهذا ما دفعه الى الاستسلام ، حيث اودع في سجن (خان دله) بشارع النهر ولم يمكث في السجن طويلاً فقد هرب اليه السلاح عن طريق اقاربه الامر الذي مكنه من الهرب .. وعبر نهر الزاب سباحة في كانون الثاني متجهاً صوب اقاربه في جبل (حمرين) الامر الذي تسبب في اعتلال صحته وأصابته بداء (الجنب) ذات الرئه وقد توفي وه في ريعان الشباب بعد ان اثقل خصومه جراحاً . ومما رثى به :

مضى عمران داهية الرجال
أذاق الانكليز شراب موتاً
تحدثنا بسيرته الليالي
مسببه المزمجر في القتال
فلم تعرف سواه من الرجال

ويقول بعض اقاربه انه صاحب روح مرحة ، وهو من الشعراء الشعبيين فقد غنى له الفنان الراحل محمد القبانجي رائد المقام العراقي قصيدته التي يقول فيها : «لمن جفن سواعد المجد مني».

وحدثني السيد موسى حياوي عيسى القيسي ، ان عمران الشبلاوي ثار على الانكليز قبل ان تنطق ثورة العشرين ، وان العثمانيين وعدوه برتبة عسكرية الانه آثر واجبه الوطني على وعود الآخرين ، وانه قتل القائد الانكليزي (دادينا) قبل ان تنطلق الرصاصة الاولى للثورة .

مات الشبلاوي وترك ذكرى جميلة حمل له اهل (حمرين) الذين يتفاخرون بفتوته وشجاعته ، فقد اصبح من الطقوس المعمول بها في منطقة حمرين ، ان الشاب الذي يبلغ الحلم في هذه المناطق يطوف به والده حول القبر ثم يطلق عيارات نارية في الهواء وهو نوع من الموروث الشعبي الذي يدل على حب الشجاعة والفتوة التي جسدها الشبلاوي هذا الشاب البغدادي الاصيل الذي عاش وترعرع في بغداد ودفن هناك عند سفح (حمرين) ليظل رمزاً للفتوة والشجاعة والاندفاع الوطني .

بيد ان رموز التكفير ازالوا رمز الشبلاوي ظناً منهم ان ينسى العراق طقوسه الوطنية .

رحلة بكنغهام الى العراق سنة 1816م

ترجمة: جلال الخياط

باحث ومترجم راحل

مازال العراق يجتذب إليه طلاب المعرفة والمتعة من مختلف أقطار المعمورة ولذلك يرجع الاهتمام الذي يبذله الرحالون والدارسون بالسفر إلى العراق والتطوف في أرجائه ، إلى أقدم العصور فحتى ما قبل ميلاد السيد المسح بقرون عديدة قام عدد كبير من الأغريق والرومان برحلات إلى العراق ودونوا مشاهداتهم وملاحظاتهم عنه في كتب ضخمة تعد من أوثق المراجع وأغناها عن تاريخ العراق القديم وجده التليد والعابر .

وحين بدأت حركة الانبعاث في أوربا وظهرت الثورة الصناعية في عدد كبير من أقطارها وراحت الأمم الأوربية ، نتيجة تلك الثورة ، تتطلع إلى الفتح والاستعمار ، نشطت حركة السياحة والسواح في الشرق ولا سيما في العراق خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد ، فقد توارد عليه عدد من الرحالة من مختلف الجنسيات منهم الفرنسي والألماني والإنكليزي والأمريكي .

والمعروف أن جون نيوبري كان أول رحالة انكليزي يهبط أرض الرافدين سنة ١٥٨١م ويكتب ما يشاهده عنها . ثم تضاعف عدد الرحالة الإنكليز في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر وكان من أشهرهم جيمس بكنغهام الذي زار العراق في صيف ١٨١٦م قادما إليه من حلب في سورية ووضع عن رحلته تلك كتابا ضخما يقع في مجلدين .

ولد جيمس س. بنكغهام سنة ١٧٨٦م في إنكلترا ونشأ وترعرع فيها ثم أنتقل وهو في عنفوان شبابه إلى الهند ليعمل في دوائر الإدارة الإنكليزية فيها وكان مغرما بالأسفار والرحلات تكاد لا يقر له قرار في مكان واحد وقد تفرغ وهو في الهند لتحرير عدد من الصحف الصادرة باللغة الإنكليزية في الهند ثم اقبل بعد ذلك يجوب الشرق ، ولا سيما البلاد الغربية ، وينتقل في أطرافه، يتحمل الجوع والعطش ويتعرض للسلب والاحتجاز وهو لا يبالي بذلك كله ويجد فيه لذة لا تعدلها لذة أخرى .

ومما هيأ له سعة الاطلاع على أحوال البلاد التي زارها تعمقه في دراسة تواريخها ووفرة ما كان يحذقه من اللغات الحية كالفرنسية واللاتينية والأسبانية والسريانية والعبرية والعربية بالإضافة إلى الإنكليزية لغته الأصلية .

كانت أولى رحلات بكنغهام في الشرق العربي رحلته إلى مصر التي تلتها رحلته الثانية إلى فلسطين وشرقي الأردن ثم رحلته الثالثة إلى سورية والعراق وقد أصدر كل واحد من هذه الرحلات الثلاث مجلدين كبيرين . كما أصدر سنة ١٨٢٥م كتابا آخر عنوانه « رحلات بين العشائر العربية « وكان في الوقت ذاته عضوا في عدة جمعيات علمية وأدبية في الهند وبريطانيا .

وأستقر بكنغهام بعد ذلك في إنكلترا وانقطع للكتابة والتأليف وهداه تفكيره المتعمق في الأحوال التي شهدها في الشرق والاضطراب الذي عم أوربا كلها في منتصف القرن التاسع عشر ، إلى مجاراة الطوبائيين فيما كانوا يحملون به من أنشاء عالم مثالي تزول فيه أسباب النزاع بين البشر وبواعث الحروب بينهم ويختفي منه الفرق الكبير بين حياة الأقلية التي تستأثر بوسائل الانتاج وموارده الثروة ، وحياة الأكثرية التي تكد وتحيا في عذاب وشقاء ، عالم يخيم عليه الاخاء والرخاء والتقدم . وفي هذا الموضوع أصدر سنة ١٨٤٨م ، وهي السنة التي سادت الثورات الشعبية فيها أكثر أرجاء أوربا ، كتابه الذي تخيل فيه أيجاد مجتمع تعاوني متحرر متآلف .

وكان عنوان الكتاب « الشرور الأهلية والعلاجات العملية لها : مخطط لإقامة بلدة نموذجية «.وقد ظل بكنغهام يبشر بدعوته تلك حتى وفاته سنة ١٨٥٥م .

تقع رحلة بكنغهام إلى العراق وسوريا ، وعنوانها « رحلات فيما بين النهرين « في جزءين كبيرين يضمان نحو ألف وعشرين صفحة ويقع القسم الذي يخص العراق من هذين الجزءين في أكثر من ستمائة صفحة والرحلة محلاة بصور رائعة لكثير من المواضع الشهيرة لعلها من رسم المؤلف ذاته وهي تعكس جانبا هاما من جوانب المجتمع العراقي آنذاك وتصور نمط حياته .

وقد بدأ بكنغهام رحلته تلك من مدينة حلب في السابع والعشرين من أيار سنة ١٨١٦م وبعد أن عبر الحدود السورية في نقطة « البير « توجه إلى « اورفه « التي تقع الآن داخل الأراضي التركية فأمضى فيها زهاء سبعة أيام ثم غادرها إلى مادرين ومنها إلى ديار بكر التي مكث فيها ثلاثة أيام أنتقل بعدها إلى نصيبين ومنها دخل الحدود العراقية عبر سهل سنجار حيث وصل مدينة الموصل في الخامس من شهر تموز .

وحين استأنف بكنغهام رحلته من الموصل لم يأخذ نهر دجلة ولا الطريق البري المحاذي له وإنما أتخذ بدلا عن ذلك طريق الموصل ، أربيل ، كركوك ، بغداد . وقد كانت مدينة الحلة منتهى رحلته .

ولقد أنفق في الموصل بضعة أيام اطلع خلالها على كل معالم المدينة و آثارها فوصف أسواقها ومساجدها وكنائسها وحماماتها وآثار نينوى القريبة منها وصفا دقيقا مسهبا ، كما أفاض في الحديث عن أحدى المرات التي حضر فيها مجلسا .

وفي طريقه من الموصل إلى بغداد وصف الأماكن التي مر بها بشيء من الإسهاب من أمثال أربيل وكركوك وطوزخرماتو وهبهب ودلي عباس وغيرها .وصل بكنغهام بغداد في العشرين من تموز فنزل ضيفا فيها على المقيم البريطاني المستر كلوديوس ريج ، وهو رحالة شهير أيضا طاف ووصف مشاهداته عنه في جزءين كبيرين بالإضافة إلى كتاب مستق وضعه عن أطلال بابل .

ولقد مكث في بغداد حوالي أربعين يوما قام خلالها بالتنقل في جميع أرجائها وضواحيها وأطلع على الأحوال العامة فيها ولم يترك مظهرا من مظاهر حياتها الا وأسهب في التحدث عنه مدونا ملاحظاته عن أوضاع السكان وطرائق معيشتهم وانطباعاته عن الكثيرين منهم وعن الحوادث التي جرى ذكرها أمامه . ومع أنه لم يسمح له بدخول المراقد المقدسة كالكاظمية وأبي حنيفة والكيلاني وغيرها الا أنه لم يغفل ملاحظاته عما شاهده من ظواهر تلك الأضرحة .

يتركز اهتمام بكنغهام في رحلته هذه في ثلاث نقاط اولها اهتمامه الشديد بوصف هيئات الناس الذين شاهدهم في مختلف المناطق التي مر بها وتحليل أخلاقهم وأوضاعهم وتباين أذواقهم في المأكل والمشرب والملبس والمسكن وفي السحنة والشكل ولاسيما أشكال الوجوه والعيون والشعور وألوانها ، وهو في هذا الميدان فارس لا يباري بما عرف عنه من دقة الملاحظة وصدق الوصف وحسن التقدير وتلك صفة قلما تتوفر في الكثيرين من السواح ، كما أنها تضفي على مشاهداته شيئا من الأمانة وعدم الغلو . فسرده لكثير من الحوادث التي تدلل على اختلال النظام وفقدان الأمن في كثير من مناطق العراق في الأرياف والمدن كانا من الأمور المألوفة في ذلك العهد ولهذا فإن ما ذكره من تعرض القوافل والمسافرين لحوادث السلب كان من الأمور الشائعة فعلا في بلاد الشرق وأن كانت تثير دهشة أولئك الذين لم يجروبها .

والنقطة الثانية هي هذا التعمق في دراسة الآثار التي شاهدها في أطلال المدن التاريخية القديمة التي زارها ولاسيما بابل ونينوى وعقرقوف فهو في بحوثه واستطلاعاته عن هذه الأطلال يمكن أن يعتبر من علماء العاديات وأن لم يكن العلم باللغة الأشورية والبابلية والسومرية شائعا في أيامه بالصفة التي نعرفها اليوم .

لقد كان في زيارته لهذه الأطلال يستطلع أشكال الأبنية التي كانت قائمة فيها عن طريق قياسات أجراها للتلول المؤلفة من الأنقاض وفحص المواد التي شيدت منها تلك الأبنية ثم الإتيان بكل ما وقعت عليه يده من الشواهد التاريخية عنها ولاسيما كتب الرومان والاثاريين الذين سبقوه في مشاهدة تلك تلك الآثار ووصفها .

فقد خصص صفحات في رحلته لوصف آثار بابل مضمنا إياه الكثير من كتبه السابقون له في هذا الموضوع ولم يكتف بذلك وحده بل عمد إلى أجراء مقارنة بين تلك الكتابات وتحديد ماهو أقرب إلى الصحة منها . ومثله هذا فعل بحثه عن أطلال نينوى وآثار عقرقوف وبعض الأماكن التاريخية في بغداد من أمثال جامع الخليفة وخان الأورتمه وقبر الست زبيدة وغيرها وتدور النقطة الثالثة من النقاط التي أهتم بها بكنغهام حل تحقيق بعض الأحداث التاريخية القديمة في العراق فقد أجرى تصويبات فيما يتعلق بمعركة اربيل التي وقعت بين دارا ملك الفرس والأسكندر المقدوني اليوناني سنة ٣٣١ قبل الميلاد والتي انتهت بهزيمة دارا وانفتاح العراق أمام الأسكندر و اجتياحه إمبراطورية فارس وبلوغه الهند حتى أصبح آنذاك سيد العالم ولم يكن عمره ليتجاوز ثلاثين سنة .

وكذلك أجرى نفس التصويبات عن معركة سنجار بين الإمبراطور الروماني تراجان والجيوش الفارسية وكيفية محاصرة « الحضر « عاصمة المملكة العربية الكبرى التي قامت هناك في القرن الرابع للميلاد .

ولم يقتصر بكنغهام على تدوين مشاهداته وملاحظاته حسب وإنما أقتبس ما يؤيد تلك المشاهدات من كتب الرحالين الذين زاروا العراق قبله عن القدامى منهم من أمثال هيرودوتس وسترابو وسيلاريوس وبنيامين التطيلي واوتر الفرنسي ودانفيل واوليفسيه وكلوديوس ريج وراوولف الألماني والميجر رنل وغيرهم بالإضافة إلى مدونات بعض المؤرخين العرب .

لقد عكفت منذ زمن على ترجمة رحلة بكنغهام هذه وقد انتهيت منها ولم يبق أمامي الأ تدوين الشروح والتعليقات الضرورية لبعض الأماكن والشواهد التاريخية وستجد طريقها للطبع في فرصة قريبة أن شاء الله .

مجلة بغداد 1964

المقهى قديماً وحديثاً

جميل الجبوري

من مظاهر الحياة الاجتماعية في بغداد قديما، وحديثا ،المقهى ، هذا المكان الذي يكاد الجميع يأمونه على اختلاف مشاربهم .

وقد لعبت المقاهي دورا بارزا في حيوات بغداد القديمة ، وكان لكل مقهى رواده الذين تعينهم اعتبارات وقيم اجتماعية كثيرة .

فالمهنة والسن والميول المتقاربة والمشارب المتفقة كلها كانت تعين رواد المقهى الواحد وأن كان ذلك لا يعني اقتصار المقهى على رواد معينين فهو مفتوح للجميع .ومن مقاهي بغداد التي اندرست – أو كادت – وحلت محلها العمارات أو الأسواق الجديدة (مقهى سبع) وموقعه في ساحة وزارة الدفاع الحالية و (مقهى وهب) بمكان دائرة مصلحة إسالة الماء اليوم قرب باب وزارة الدفاع القديم و(مقهى وزير) قرب باب المعظم و(مقهى المميز) في رأس الجسر القديم بالكرخ و (مقهى عزاوي) في محلة الميدان .

ومن المقاهي المشهورة أيضا – في ذلك الوقت – مقاهي (عكيل والعنبار والمصبغة والمربعة) وغيرها ... وغيرها .

وكانت لكل مقهى صفة خاصة تميزها، فمقهى العنبار والمصبغة يعتبران بورصة السوق التجارية ومقهى عكيل يقدم أجود أنواع القهوة العربية ولا يسمح بلهو أو لعب ليوفر لمرتاديه جو الدعة والهدوء .

وقد كان المجتمع البغدادي يضع لارتياد المقاهي اعتبارات يحترمها الجميع فالشاب – مثلا – لا يصح أن يرتاد مقاهي الشيوخ ومن غير المقبل أن يمزح صغار السن – في المقهى – أمام الكبار أو أن يلعبوا النرد أو الدومينو .

ولذلك نجد – الأغلب – مكان الكبار هو غير مكان الشباب لكي يتمكن كل منهم أن يجد الجو الذي يلائمه في المقهى .

ليالي الطرب في المقاهي القديمة :

ولئن كانت المقاهي – ومازال بعضها حتى اليوم – المكان الذي يهدر فيه الوقت بمختلف وسائل التسلية ومنها قديما (المنقلة والنرد والدومينو ولعب الورق) فقد كان بعضها يحي حفلات الغناء حيث ينشد في المقام أكابر قرائه.

وقد كان من المعروف لدى هواة فن المقام أن المطرب العراقي الكبير (احمد الزيدان) يحي حفلاته في مقهى المميز كما يحي المطربان (حسن الشكرجي والسيد جميل) حفلاتهما في مقهى سبع ،وقد أحيا بعدهما المطرب (نجم الشيخلي) حفلاته في مقهى (عزاوي) بالميدان .

ولم تقتصر حفلات الغناء على مقاهي معينة بل أن جمهور بغداد كان مدعوا – دائما – للاستمتاع بفن فطاحل الغناء – يومذاك – في أمثال المطرب (رشيد القندرجي) وبقية تلاميذ شيخ المقام العراقي (احمد الزيدان).

حركة البيع والشراء في المقاهي:

ولعل من المشاهد المميزة أن ترى المقهى البغدادي سوقا نشطة لحركة البيع والشراء . ولم يقتصر نشاطه على سلعة واحدة أو بضاعة معينة . ففي الوقت الذي تجد فيه من حمل على كتفه (سجادة إيرانية) يجوب بها المقاهي ويساوم جلاسها على الثمن تجد من يبيع في المقهى افراخ الدجاج الحية أو السمك الطازج أو الديك الرومي .

وليس من المستغرب البته أن يمر أمامك وأنت جالس على أريكة في أحد مقاهي بغداد من يعرض عليك شراء العطور أو الصابون أو الملابس الداخلية أو المناديل والمناشف . . أو غيرها من السلع مما قد لا يخطر لك على البال .

.. سوق تختلط فيه المعروضات وتتنوع . وبين الحين والأخر يرتفع صوت عامل المقهى جذلانا لينادي زميله أن يحضر (شيشة) لأحد الجلاس أو يجلب له الماء .

وفي خضم هذه الدوامة المرهقة تجد من يكرهك على مسح حذائك شئت أم أبيت و الأ فهو لن يتواني أن يمر أمامك ألف مرة يدعوك في كل منها لمسح حذائك !!

مجالات أخرى في المقهى البغدادي :

والمقهى البغدادي بعد هذا وذاك محل تناول الطعام الخفيف من المشويات والمقنيات والمعجنات للكثيرين ممن يستهويهم تناول هذه الأصناف فيه يشترونها من بائعة متجولين أو يطلبونها من أماكن بيعها المجاورة للمقاهي .

ومن المشاهد المألوفة في المقهى البغدادي أن تجد أكلا للطعام وبجانبه وسنانا يكاد النعاس أن يأخذه في إغفاءة قد يصاحبها الشخير . أو تجد قارئ كتاب انشغل في متابعة فصوله عن كل ما يحيط به من صخب وجلبة .

وقد كانت بعض المقاهي البغدادية القديمة تعقد جلسات الرواية في أمسيات معينة حيث يروي (القصة خون) – وهو الرجل الذي حفظ الكثير من قصقص عنترة والزير سالم الزناتي خليفة وماشابهها عن ظهر قلب – فصولا من قصص المغامرات الخيالية والبطولات الوهمية .

وعندما ينصرف الرجل القاص إلى رواية قصته ينصت إليه جميع رواد المقهى بانسجام وتوافق كاملين . فهم يرتاحون ويبتهجون حينما ينتصر البطل ويأسون ويأسفون عندما يواجه محنة ما أو يمر بمأزق من المأزق .

وهكذا يعيشون بانفعال تجارب الأحداث التي ترويها القصص نهاية حتى نهاية الحلقة المقدمة

التي تنتهي بموعد جديد في (لقاء آخر قادم) تتابع فيه بقية الفصول.

ورواد مقاهي (القصة خون) يحرصون بمثابرة ملحوظة – على حضور جلسات الرواية ومتابعة فصولها . ولئن مر على المقاهي البغدادية زمن طويل منذ ودعت مجالس القصة التي كان يتلاعب فيها (القصة خون) بعواطف الجانسين بما أوتي من أمكانية فذة في الأداء والترنم والتنغيم فقد عوضت لجلاسها بالكرامفون أولا ، ثم الراديو ، وأخيرا التلفزيون . ومطالعة الصحف اليومية في المقاهي عادة دخلت المقهى الحديث في بغداد في العشرين سنة أخيرة . لذلك فمن المناظر المألوفة اليوم في مقاهي الميدان والحيدر خانة والمصبغة أن تجد بائع الصحف يوزع جرائده على الجالسين للمطالعة لقاء أجر معلوم .

والمقاهي البغدادية تقدم لمرتاديها – إلى جانب الشاي والمرطبات – القهوة العربية من الدلال الصفر البراقة يديرها عليهم (ساقي) ينغم عمله بقرقعة الفناجين .

وفي الوقت الذي يحلو فيه لبعض رواد المقاهي من الشيوخ استرجاع ذكريات الصبا وعهود الشباب الحلوة وهم يدخنون (الشيشة) ويحتسون القهوة ، ينصرف آخرون غلى عقد الصفقات التجارية والمساومة على البضائع أو أبرام عقود الأيجار والأستئجار.

هذه الحيوات المتباينة الخصبة التي عاشها المقهى البغدادي قديما ولما يزل يعيش بعض مظاهرها حتى اليوم تقابلها – من ناحية ثانية – المظاهر الجديدة التي أدخلتها (الكازينو) الحديثة . ولئن شهد المقهى القديم (التخوت) الخشبية العالية ذات المساند الصلبة ، ومن ثم الأرائك المفروشة بالقماش و أحيانا السجاد الثمين فأن الكازينو الحديثة أثثت بالكراسي الحديثة والمراجيح الوثيرة .

وإذا قدمت المقاهي القديمة القهوة والشاي واستطاع مرتادها أن يتناول بعض الأطعمة فيها فأن الكازينو الحديثة تقدم صحون الأطعمة الجيدة والمشروبات من كل نوع ، الغازية منها والروحية محاولة تهيئة أجواء هادئة مريحة افتقدها المقهى القديم، بما تسمعه لروادها من ألوان الموسيقى الحالمة والأغاني المفضلة . وتحتل أثر الكازينوهات الحديثة اليوم أماكنها في شارع أبي نؤاس الطل على نهر دجلة حيث يلذ السمر ويطيب السهر ولاسيما في ليالي الصيف وبعض ليالي الربيع والخريف. والواقع أن مظاهر الحياة في المقهى القديم والكازينو الحديثة – وما بينها من فروق – تكون ركنا هاما في مجالي الحياة البغدادية ذات السمات المميزة والنكهة العبقة التي لها في نفس (البغدادي) أطيب الأثر وأبقاه.

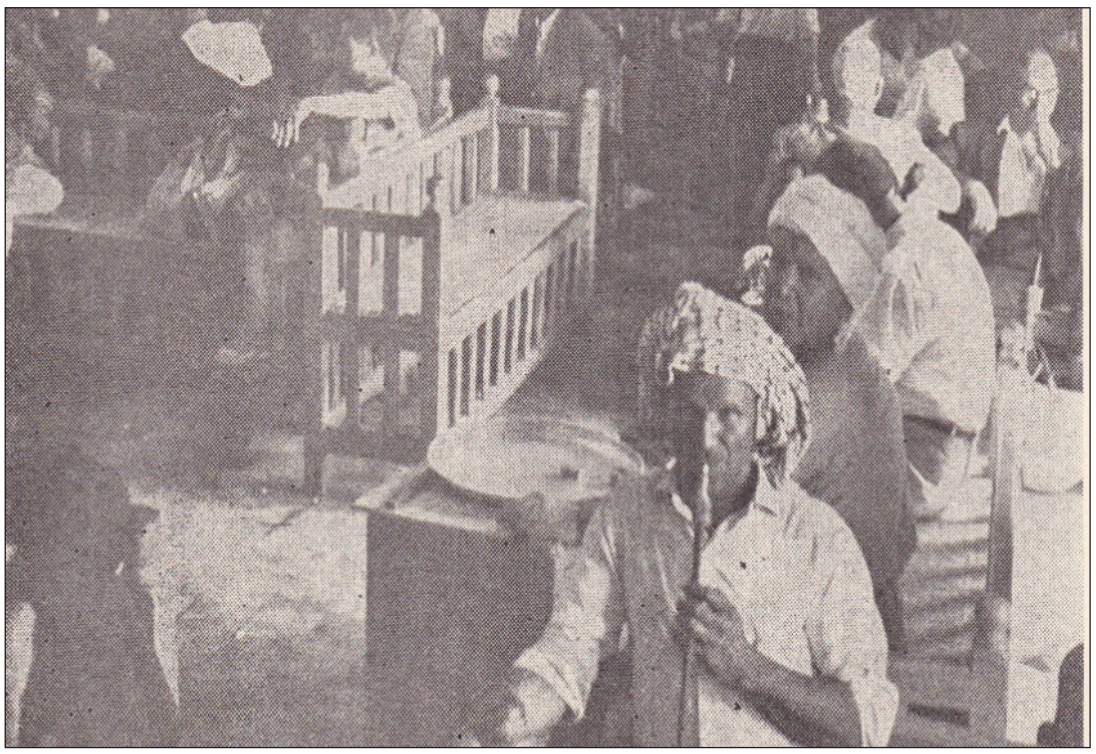

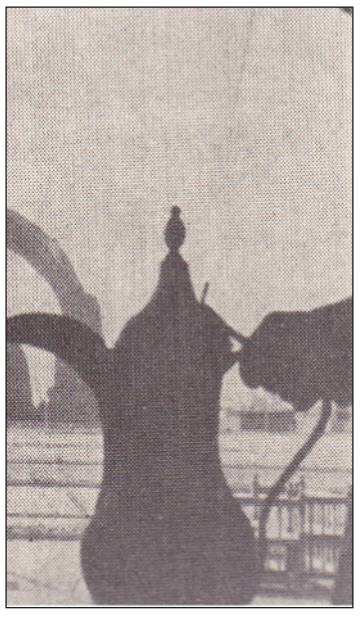

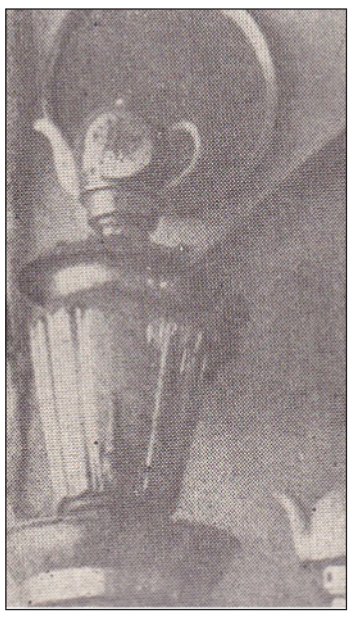

المقهى البغدادي بعد هذا وذاك محل تناول الطعام الخفيف من المشويات والمقنيات والمعجنات للكثيرين ممن يستهويهم تناول هذه الأصناف فيه يشترونها من بائعة متجولين أو يطلبونها من أماكن بيعها المجاورة للمقاهي . ومن المشاهد المألوفة في المقهى البغدادي أن تجد أكلا للطعام وبجانبه وسنانا يكاد النعاس أن يأخذه في إغفاءة قد يصاحبها الشخير . أو تجد قارئ كتاب انشغل في متابعة فصوله عن كل ما يحيط به من صخب وجلبة .

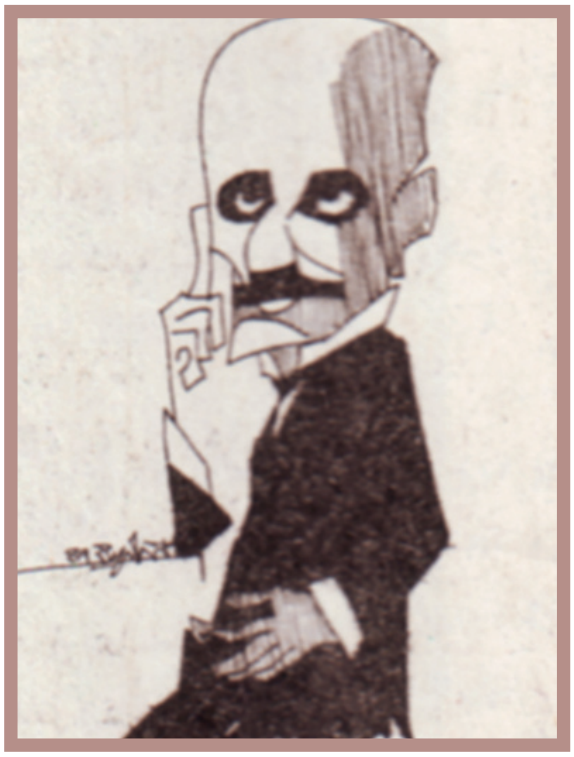

رستم حيدر.. عمل مع العثمانيين وكان اول عربي يتولى منصبا كبيرا في العراق

ولد محمد رستم حيدر في بعلبك عام 1889. وهو شخصية فذّة لعبت دوراً بارزاً في تاريخ سوريا والعراق زمن الأمير فيصل كما في سياسة العراق في العهد الملكي. التحق اول الامر بفيصل (الاول) في حملته على سوريا وكان مرافقاً له في مؤتمر الصلح في باريس وأمضى قرابة ربع قرن في معيته ومعية ابنه الملك غازي. ولنبدأ بسرد موجز لحياة هذا الرجل الذي لم يتزوج وعاش عيشة متواضعة رغم انه تبوأ المناصب الرفيعة في حكومة العرّاق. ولقد انتهت حياته بمأساة اذ انه اغتيل سنة 1940 وهو في شرخ شبابه واوجّ عطائه.

درس رستم حيدر في اسطنبول في "المدرسة الملكية الشاهانية" وتخرج منها عام ١٩١٠ ثم ذهب الى باريس لمتابعة دراسته في السوربون حيث عمل مع بعض الشخصيات العربية في المجال السياسي والوطني للدفاع عن القضايا العربية في جمعية "العربية الفتاة". وفي ١٩١٢ عاد من باريس ليعمل في وطنه في حقل التعليم الى ان التحق بالأمير فيصل.

وفي ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٨ توجه الامير فيصل الى باريس لحضور مؤتمر الصلح وكان يرافقه نوري السعيد ورستم حيدر والدكتور احمد قدري وفائز الغصين.

وفي ٩ كانون الاول ١٩١٨ غادر فيصل وحاشيته فرنسا الى انكلترا. ثم عاد الى باريس في ٧ كانون الثاني ١٩١٩ لحضور مؤتمر الصلح مندوباً عن الحجاز وكان رستم حيدر المندوب الثاني، ولورنس مستشاراً للوفد ومترجماً.

تغطي مذكرات رستم حيدر () وهي اشبه ما تكون بيوميات كان يدونها في مفكرته لمجريات الامور – الفترة ما بين ١٩١٨ و١٩٢١. وهي تبدأ في ١٩١٨/٨/١٠ وتنتهي في ١٩٢١/٣/٢٥.

وهو يذكر تاريخ اليوم وحتى الساعة احياناً بعضها بضعة اسطر وبعضها بضع صفحات وبعضها مجرد برقيات. وهو يذكر الامير فيصل بالاسم او "سيدنا" او يختصره بـ (ج) جلالة او (ف) اي فيصل.

وهو حريص على ذكر التفاصيل الدقيقة وحتى الصغيرة. والمذكرات، التي حققها وقدّم لها نجدة فتحي صفوة وهو عراقي، تضم ٨٥٢ صفحة و١٢ ملحقاً منها قصيدة خليل مطران في رثاء رستم حيدر.

في ١٩٢١، وفي ٢٣ من حزيران، وصل رستم حيدر الى العراق وكانت هذه المرّة الاولى التي يطأ فيها ارض البلد الذي قدّر له ان يعمل فيه، ويحمل جنسيته ويتسلّم فيه اعلى المناصب ثم يلقى حتفه مقتولاً على يد احد العراقيين ويدفن في ثراه. وكان من اقرب المستشارين الى الملك فيصل واكثرهم تمتعاً بثقته وكان كاتب خطبه وتصريحاته وكاتم اسراره.

فكان بهذه الصفة من اقوى موجّهي سياسة الدولة العراقية الفتية. ثم اشترك خلال ثلاثينيات القرن العشرين وزيراً في سبع وزارات. وكان في اربع منها وزيراً للمال وفي ثلاث وزيراً للاقتصاد والمواصلات. اربع منها في وزارات ترأسها نوري السعيد، واثنتان ترأسهما رشيد عالي الكيلاني وواحدة كانت برئاسة جميل مدفعي.

عانى رستم حيدر خلال عمله في العراق قرابة ٢٠ سنة من نقطتي ضعف في شخصيته التي كانت مستكملة صفات رجل الدولة من نزاهة وكفاية وخبرة وذكاء واخلاص: الاولى اصله السوري (اللبناني) والثانية اتهامه بالطائفية (كونه شيعياً).

والصحيح ان رستم حيدر كان بعيداً عن التعصب لمذهب دون آخر أو منحازاً لطائفة دون اخرى. ولكنه كان يرى ان الشيعة في العراق حرموا من فرص التعليم خلال الحكم العثماني الطويل، وبالتالي ابتعدوا عن وظائف الدولة ومناصب الجيش، واتجهوا الى التجارة والمهن الحرة الاخرى. فلما تأسست الدولة العراقية لم يكن في الجهاز الاداري الذي ورثته عن الدولة العثمانية، بين الرجال الذين يمكن الاستعانة بهم للعمل في جهاز الدولة الجديدة، من الشيعة عدد يوازي نسبتهم العددية الى سكان البلاد، ولذلك كان رستم حيدر يرى من الضروري تعديل هذا الوضع بصورة تدريجية. فاذا وجد شاباً من الشيعة يتوسم فيه الخير، ورأى لديه الكفاية لأن يكون في المستقبل موظفاً جيداً أو رجل دولة صالحاً قدّمه وسانده، وبذلك يكون قد ساهم في تصحيح الوضع من جهة، وجمع حوله عدداً من الذين يدينون له بالولاء. ولكن الكثيرين اعتبروه يعيّن الشيعة او يساندهم لمجرد انهم شيعة، فاتهموه بالطائفية.

وتجدر الاشارة هنا الى ان الملك فيصل الاول حينما كان ملكاً في سوريا، كان معظم المقربين منه، من العراقيين مثل ياسين الهاشمي وجعفر العسكري ونوري السعيد وجميل المدفعي وطه الهاشمي وغيرهم من الضباط العراقيين الذين التحقوا بالثورة العربية، في حين انه لما اصبح ملكاً على العراق كان معظم حاشيته من السوريين. فالى جانب سكرتيره الخاص ورئيس ديوانه رستم حيدر، كان مرافقه الشخصي ثم رئيس تشريفاته تحسين قدري ، وناظر الخزينة الملكية الخاصة صفوة (باشا) العوّا، ومعاون رئيس الديوان الملكي امين كسباني وعبد الله الحاج، وطبيبه الخاص امين (باشا) المعلوف وقبله احمد قدري، وقد اختار له مدرساً يدرسه اللغة الانكليزية هو ابرهيم الدباس.

عندما تولى رستم حيدر وزارة المال في العراق كانت العملة المتداولة في العراق منذ الاحتلال البريطاني هي "الروبية" الهندية التي فرضتها حكومة الاحتلال، ومن ثم بقيت عملة رسمية في العراق، فوجد انه من الضروري استبدال "الروبية" بالدينار كعملة رسمية للعراق. وهكذا اصبح الدينار العراقي اعتباراً من اول نيسان ١٩٣٢ بفضل رستم حيدر العملة الرسمية في العراق.

توفي الملك فيصل الاول في ٨ ايلول ١٩٣٣ في العاصمة السويسرية برن، وكان قد قصدها للمعالجة والاستجمام. وعلى الرغم ان رستم حيدر كان يستمد قوته من ثقة الملك فيصل الذي كان سنده الرئيسي، فانه احتفظ بمركزه المرموق في الدولة بعد وفاة فيصل بسبب ما حققه لنفسه من مكانة بين رجالات العراق، وما كوّنه من علاقات وثيقة بمعظم زعمائه.

وفي ٤ نيسان ١٩٣٩ قتل الملك غازي في حادث السيارة المعروف. فانتقل العرش الى الملك فيصل الثاني الذي كان طفلاً صغيراً، واختير خاله الامير عبد الاله وصياً على العرش.

فاستقالت وزراة نوري السعيد عملاً بالتقاليد الدستورية التي تفضي بان تستقيل الوزارة عند انتقال العرش الى ملك جديد. فعهد الى نوري السعيد بتشكيل الوزارة مرة اخرى، وهي وزارته الرابعة. وقد احتفظ فيها رستم حيدر بوزارة المال، وبقي فيها حتى وفاته.

لم يتزوج رستم حيدر – كما سبق وذكرنا – فكان يسكن بمفرده في دار صغيرة في منطقة "الصالحية" ببغداد. وفي ١٨ كانون الثاني ١٩٤٠ وبينما كان في مكتبه بوزارة المال دخل عليه المدعو حسين فوزي توفيق وهو من مفوضي الشرطة المفصولين واطلق عليه النار فاصابه في خاصرته اليسرى، فنقل الى المستشفى ولكنه توفي متأثراً بجراحه في ٢٢ كانون الثاني ١٩٤٠.

القي القبض على الجاني الذي اعترف بانه هو الذي اطلق النار علي رستم حيدر لعدم حصوله على وظيفة كان الوزير يعده بها دون جدوى فاقدم على فعلته. ولكن من

الدافع على ارتكاب هذه الجريمة النكراء؟
حامت الشبهات حول ان هناك من حرّض الجاني على ارتكاب جريمته وهما ابرهيم كمال وصبيح نجيب. وقد ادى اغتيال رستم حيدر الى استقالة نوري السعيد رئيس الوزراء إثر ما اثير من لغط حول اغتياله. ولكن من الذي قتل الملك غازي؟ ومن الذي قتل رستم حيدر؟ اسئلة لن تجد الجواب الحقيقي وستبقى من الألغاز.
ذكر السيد عبد الرزاق الحسني انه فهم من صالح جبر نفسه انه كان يعتقد ان رستم حيدر ذهب ضحية لمؤامرة دبرها خصوم نوري السعيد لاضعاف وزارته، او ان الألمان هم الذين دبروا الجريمة.
اما القاتل حسين فوزي توفيق فقد اصدرت المحكمة حكمها عليه بالاعدام، لثبوت ارتكابه الجريمة باعترافه. وتم تنفيذ الحكم فيه في ٢٧ آذار ١٩٤٠. وقيل ان حرس السجن الذين حضروا عملية تنفيذ الاعدام سمعوه يصيح جهاراً، وهو في طريقه الى المشنقة: "وَرّطني.. وَرّطني...".
وهناك من يرى ان الاغتيال دبره عملاء الالمان الذين حرّضوا القاتل على الاغتيال ليحدثوا شغباً بين الشيعة والسنة. وكان قد شاع ان القاتل كان في المانيا. وايًا ما كان، فان الحادثة بقيت مشوبة بكثير من الغموض، وان تصرفات نوري السعيد إثر اطلاق الرصاص على رستم حيدر، وما اظهره من ارتباك، ومقابلته الجاني في سجنه على انفراد، ثم تغيير الجاني افادته على إثر تلك المقابلة، زادت في تقوّلات الناس وشكوكهم، اذ انهم ربطوا تلك الزيارة بما قيل من ان الجاني كان يصرخ وهو في طريقه الى المشنقة "وَرّطني.. وَرّطني...".
ولكن البعض يرى انه ليس لنوري السعيد اية مصلحة في عملية الاغتيال فهو لم يكن على عداوة مع رستم حيدر بل انه ضمه في كل وزارة الّفها حتى مقتله. وفوق ذلك فإن نوري السعيد لم يكن يراقبه منافساً له في رئاسة الوزارة. ومهما يكن، فان مقتل رستم حيدر احدث رنة أسى في العراق وفي سائر الدول العربية.
لنعد الى المذكرات وهي موضوع بحثنا. ليس من الممكن تناول كل ما جاء فيها في هذه العجالة. وهي كما سبقت الاشارة تسجيل يومي ذو تاريخ متسلسل.
ولكني سوف اقف عند ما يهمنا من المفاوضات التي اجريت في باريس والوقوف عند ما له علاقة بلبنان. فهو يفرق بين العقلية الفرنساوية والعقلية الانكلوسكسونية في السياسة فيقول (ص ٣٢٧): يندهش الانسان من الامة الفرنساوية ورجالها، ومن رجال الامة الانكلوساكسونية. الرئيس ويلسون يلاقي الامير (فيصل) مرتين، واما كليمنصو ولا مرة!! أمر غريب، كأن فرنسة ليس لها علاقة بالشرق؟ هذه سجية عرف بها رجال الامم السكسونية! الجد في العمل والقول. ولماذا البطء والتلاعب؟ وفي تاريخ السبت ١٩١٩/٦/٢١ يأتي على ذكر البطريرك الياس الحويك (١٨٤٣ – ١٩٣١) الذي ذهب الى باريس ليفاوض بشأن استقلال لبنان فيقول (ص ٤٢١ – ٤٢٢): "يظهر ان بطريرك الموارنة سيحضر الى باريس لأجل المطالبة بلبنان الكبير مع معاونة فرنسية. ويقال إنه ميّال للمطالبة بالاستقلال التام.
أرى انه من الواجب توسيع لبنان بقدر الامكان والاتفاق اذا امكن ضمن هذه الشروط مع البطريرك في طلب الاستقلال التام بدون قيد ولا شرط. لبنان المتوسط لا الكبير مفيد اذا كان مستقلا تمام الاستقلال واضمام بيروت وصيدا وصور مع جبل عامل له يقوّي حزب الاسلام والدروز وبقية العناصر المسيحية غير الموارنة ويربط الجبل بصفته العربية لانه على هذه الحالة يخشى من ان يعتنق الفرنسوية ويلوذ بها حفظاً لكيانه فنضيع بذلك قسماً من البلاد يكون دوماً خطراً عليها في المستقبل.
اما اذا استقل لبنان وفازت فيه السياسة العربية فيكون ملجأ للاحرار ومركزاً تنشر منه الافكار الحرة والاستقلالية. واما لبنان فيستفيد إستفادة عظمى لأن كل البلاد العربية تصبح مستعمرة له اذا قام بما قام به من النشاط حتى الآن". بينما يرى الامير فيصل (ص ٤٤٤): "ان لبنان يجب ان يكون مستقلاً استقلالاً تاماً ويود ان يعاونه ويراه في اوج السعادة، وهو يحب اللبنانيين وذكاءهم ونشاطهم ويحب ان يستعين بهم في نهضة البلاد". ولنعد الى البطريرك الياس الحويك فقد ورد (ص ٤٥٠) انه زار يوم الخميس في ١٩١٩/٨/٢٨ بونكاريه وطلب اليه ان تساعد فرنسا لبنان لكي يتسع ضمن حدوده التاريخية، مستقلاً مع المعونة الفرنسوية فوعده الرئيس وقال له انني استدعيت كليمنصو فقال لي انه اصبح لبنانياً اكثر من اللبنانيين ثم قال له ان كليمنصو اذا تمسك بأمر فعله.
لا بدّ للبنان من معاونة فرنسة والبطريرك طلب وسيطلب ذلك عند اللزوم. ثم يدخل اليهود على الخط ويأتي وايزمان ويجتمع بالأمير فيصل في ١٩١٩/٩/٢٦ ليطالب بوطن قومي لليهود في فلسطين كما جاء (ص ٤٧٤): يقول وايزمان: اليهود في العالم ١٤ مليونا، كلهم يريدون ان يروا فلسطين يهودية ولكن ٦ ملايين يودّون الذهاب اليها... اما اليوم فلا يوجد في فلسطين الا ٦٠–٧٠ الفاً من اليهود.
واما المسلمون والمسيحيون فعددهم ٦٠٠ الف. انه يريد الهجرة والمساواة ومع الزمن اذا تمت الاكثرية لليهود فيمكنهم أن يؤسسوا حكومة ديموقراطية على اساس المساواة، وقصدهم ان يكونوا مع العرب اخواناً ليس الا. ثم ان البلاد العربية فيها الآن ١٣ مليوناً وهي تعيّش ٥٠–٦٠ مليوناً، فليس يوجد خطر على البلاد لانها واسعة جداً من مجيء ٦ ملايين يهودي...
نجد في المذكرات اشياء طريفة يسجلها رستم حيدر تدل على صحة حدسه. يقول الخميس ١ كانون الثاني ١٩٢٠ (ص ٥٣٤): "يوم رأس السنة الجديدة، علّها خير على الامة بين مطامع المستعمرين الاوروبيين التي تزداد كل يوم. ويل للشرق، لا حياة له الا بعد خمسين سنة بالسعي والتعاضد. اوروبا تمتصّه. شر كلها، وشرّ ما فيها انه لا بد منها". وهو يلخص رأيه في سياسة اوروبا فيقول الاثنين ١٩٢٠/٧/١٢ (ص ٦٦٥): "لا يمكن الاتكال على اقوال حكومة اوروبية في المسائل السياسية لان سياستها ستتبدل حسب قوتها ومنافعها فلا عهد ولا ذمة. قديماً كان بيكو يتدخل على الملك فيصل لاجل إنهاء القضية حسبما يشاء مع طلب انتداب فرنسة، ولو اعطى ذلك في حينه لتمشّت فرنسة على سياسة ربما كانت أضعف من سياستها الآن لان عساكرها كانت قليلة واميركا وانكلترا وحالة العالم كانت مساعدة جداً، ثم مضت ايام فاصبحنا نفتش على الاتفاق لديهم وهم يتمنعون ويهددون وقد جاء زمن كانوا يرجوننا بالحضور الى اوروبا، والآن اصبحنا نرجوهم ولا يقبلون، وهكذا نسأل الله ان يرميهم بحرب ثانية في ديارهم رأفة بالعالم".
لقد استجاب الله لطلب رستم حيدر وحقق له امنيته فنشبت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٥) ودمّرت اوروبا نفسها واودت بحياة خمسين مليون نسمة. رحم الله رستم حيدر لو كان اليوم حياً ماذا كان يقول عن الذي يجري في العراق؟
() مذكرات رستم حيدر – تحقيق نجدة فتحي صفوة، الدار العربية للموسوعات، بيروت، الطبعة الاولى ١٩٨٨ في ٨٥٠ صفحة من القطع الكبير.

*عن جريدة النهار 1989

مساجد سامراء العامرة

تعتبر مدينة سامراء من المدن المهمة في العراق حيث تكثر فيها المعالم الأثرية التي يرجع تاريخها للعهد العباسي ، ومن أبرز هذا الآثار التي لا تزال شاخصة للعيان المسجد الجامع أو المنارة الملوية ، وهناك : مساجد أخرى أنشأت قديما وحديثا وفي هذه المدينة أشهرها

الجامع الكبير

يقع هذا الجامع وسط الصحن العسكري ، وله قبة مبنية بالكاشي على شكل مدور وجميل ، وهذا الجامع من أفخم واكبر الجوامع في مدينه سامراء في وقتنا هذا ، ويسمى أيضا بجامع المهدي نسبة للأمام محمد المهدي بن الحسن العسكري رضي الله عنه ، وقام بإنشائه الخليفة احمد الناصر العباسي سنة ٦٠٦هـ وقد أشار : السماوي في منظومته وشائج السراء في شأن سامراء قوله

ثم أتانا الناصر العباس
بفيض جـود وضرام بأس
فعمـر القبـة و المـــأذنا
وزاد في تشيـدها المحاسنا
وزين الروض بما قد ابتـهج
وعقد السرداب في صنع الازج

والجامع يقع تحت قبة الأمام محمد المهدي ، والقبة مستديرة الشكل يبلغ محيطها (٤٥) مترا و(٣٢) سنتمترا أما قطرها فيبلغ (١٥) مترا و (١١) سنتمترا وكان قد أجرى تعمير على هذه القبة حيث رفع الكاشي والطابوق وأعيد من جديد خلال سنتي (١٣٧٦-١٣٧٧ هـ) . من قبل وزارة المالية العراقية

ولهذا الجامع باب رئيس واحد يقع من جهة الشمال وأمامه طارمة ضخمة مبنية على الطراز الحديث أنشئت من قبل وزارة الإسكان وأكملت سنة (١٣٨١ هـ -١٩٦١ م) ويبلغ ارتفاعها نحو (١٥) مترا وطولها نحو (٣٢) مترا وعرضها نحو (١٨) مترا وبالجانب الشرقي . من هذه الطارمة محل خاص لحفظ الأحذية

أما القبة فأمامها رواق له ثلاثة أبواب تؤدي الى داخل القبة وسرداب الغيبة ، وفوق قبة الجامع تعلو مكبرة الصوت ، كما توجد كتابة جميلة فوق الباب الأوسط للرواق وهي عدة أبيات باللغة الفارسية بخط بديع وتحتها تاريخ خطها مما يدل على أنها كتبت سنة (١٢٢٥هـ) والجامع يتكون من أربعة رواقات في الرواق الوسط يوجد (المحفل) وهو محل خاص لقراءة القرآن الكريم في أيام الجمع والأعياد وله درج يصعد أليه من داخل القبة أما المنبر والمحراب فمبنيان على الطراز الحديث والجامع مصبوغ بألوان جذابة زاهية وبديعة للغاية وفيه تقام صلاة الجمع في قصبة . سامراء ويحضره كل جمعة أكثر من ثلاثة ألاف مصلي

: جامع القلعة

يقع هذا الجامع بمحلة القلعة على الأيمن من نهر دجلة وأنشئ في حدود سنة (١٣١٠هـ) وكان المتبرع المرحوم الحاج عبد الكريم بن أحمد الجدوع وكان هذا الجامع يقع قرب نهر دجلة فهدم من جراء الفيضان الذي حدث سنة ١٩٤١ م ، وفي سنة ١٩٤٥ سجل في مديرية الأوقاف العامة وعين فيه أمام وخطيب جامع ومؤذن وخادم وفي سنة (١٣٦٩هـ-١٩٤٩م) وسع وشيد على الطراز الحديث حيث يبلغ طول حرم الجامع عشرين مترا وعرضه ثمانية أمتار وأمام الحرم طارمة بطول الحرم وعرضه ويوجد في الجامع غرفة لاستراحة الأمام والخطيب كما انه مزود بالكهرباء ومكبرة صوت حيث وصلت . (له القوة الكهربائية سنة (١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م

: مسجد حسن باشا

أمام المدرسة العلمية الدينية وقد أمر بإنشائه حسن باشا سنة (١٣٠٧هـ ١٨٩٢م) وبعد تعميره وإكماله بسنتين أتخذ مدرسة ابتدائية ورشيدية وقد أرخ بسبب ذلك بنصف بيت من الشعر (مكتب بالخير بدئ) وفي سنة ١٩٥٦م أمرت الحكومة بفتح شارع يمتد المعهد الفني للبنات حتى الصحن الشريف ، فمر على المسجد وهدمه تماما وأنشئ مكانه مسجد جديد سمي باسمه القديم (مسجد حسن باشا) وذلك سنة ١٣٨٤هـ والمسجد مبني على الطراز الحديث ويبلغ . طوله نحو ١٥ مترا وعرضه ٦ أمتار ومعه وسائل الراحة كافة

: مسجد الحاج حميد الحسون

يقع قرب متحف سامراء على جانب شارع الحرية قام بإنشائه المرحوم الحاج حميد الحسون أحد أفراد عشيرة البوباز ويبلغ طول حرم المسجد نحو (١٠) أمتار وعرضه نحو (٥) أمتار وفي مقدمة الحرم طارمة يبغ طولها وعرضها طول وعرض المسجد وكان تاريخ إنشائه سنة(١٣٧٤هـ -١٩٥٤م) وقد يكتب على باب المسجد بخط : جميل هذه الأبيات

أشرق في الحي لنـا مسجد
قد شاه آل محسن عبد الحميد
أجـره الله على سعـيه
أجرين في الدنيا ويوم الوعيد
لذا فقد أرخت بدر السما
زها به الحي وأضحى سعيد

مجلة بغداد اذار 1965

من الارشيف

آذار ١٩٣٦ في بيت رشيد عالي الكيلاني في الصليخ لتكريم طلعت حرب باشا

الجالسون من اليمين

.....، رؤوف البحراني، محمود صبحي الدفتري، تحسين قدري، عبد الرحمن الجوريجي،.....، مولود مخلص، م

الواقفون من اليمين

.....، عبد الغفور البدري، جعفر ابو التمن، عبد الحسين الجلبي، جعفر العسكري، نوري السعيد، ياسين الهاشم

رشيد عالي الكيلاني، اربعة اشخاص مصريون، رفائيل بطي، عبد العزيز القصاب، منير القاضي، معروف الرص

محمد امين زكي، حامد الوادي، سعيد ثابت، إبراهيم حلمي العمر، يونس بحري، شخص مصري.

ي، محمد الصدر، محمد زكي البصري، شخص مصري، ....، شخص مصري، شخص مصري، طلعت حرب، ....،
ايف، حكمة سليمان، ....، محمد بهجة الاثري، عبد الرزاق السنهوري.

مع الأعداد الأولى من الصحف العراقية

عبد الحميد العلوجي
باحث راحل

بين محفوظاتي القديمة من المجلات والجرائد العربية .. وقعت على مجموعة بتراء من مجلة (الرياحين) البغدادية قوامها خمسة أعداد من سنتها الأولى .

وقد رأيت على غلاف عددها البكر ما يشير ألى أنها (مجلة أدبية , تهذيبية , أخلاقية ,فكاهية , تصدر في الشهر مرة مؤقتا) .

ولقد تعاون على إصدارها أدبيان بغداديان لامعان , هما :إبراهيم منيب الباججي (وكان صاحبها) , و إبراهيم صالح شكر (وكان محررها ومديرها المسؤول) .

وصدر عـددها الأول مثقلا بست عشرة صفحة في (غرة جمادي الأول 1332 الموافق مارت 1329) ..وهذان التاريخان يومثان الى التقويمين الهجري والرومي , وهما يكافئان سنة 1913 الميلادية .

وأكد الإبراهيميان ـــ على غلاف العدد الأول أن (الرسائل لا ترد لأصحابها .. نشرت أم لم تنشر) ، وان لا عبرة بالوصولات (مالم تكن ممضية بإمضاء صاحب المجلة) ، وان (الاشتراكات لسنة في بغداد وبقية البلاد العثمانية مجيدي واحد وفي البلاد الأجنبية مجيديان) .

والمجيدي، هنا ، إنما هو المجيدي الصغير الذي كان يعادل ثمانية قروش رائجة ، وهو ما نسبوه الى السلطان عبد المجيد الذي ولي السلطنة عام ١٨٣٩ وأم أجد ، في محتوى العدد الأول ، أي أشارة الى ثمن النسخة الواحدة من هذه المجلة .. ولكن العدد الثاني الذي بزغ في غرة جمادي الأخر جعل الثمن عشرين بارة والزمت (الرياحين) قراءها ـــ في صفحة الغلاف بأن (من قبل عددا واحدا من المجلة عد مشتركا ويطالب بالاشتراك) .. غير أن المستوى المعيشي المتدهور الذي كان يسود الحياة العراقية يومذاك ، كان يشجع على استهجان هذا الشرط ، ويحبب الاستحواذ على المجلة بلا سبب مشروع . وهذا ما قهر ادارة المجلة على ان تعلن في العدد الثاني (رجاءا) ..هذا نصه : (على اثر ما وزعنا العدد الاول من الرياحين قدمنا الوصولات الى من قبل المجلة بموجب دفتر الموزع عبد الأحد لاستلام بدل الاشتراك .إلا أن البعض أجابنا بأن العدد المذكور لم يصله ، فعليه أظطرينا الى تأجيل التحصيلات وقدمنا العدد الثاني هذا في البريد الداخلي بموجب ذلك الدفتر رفعا للشك ، فالمرجو ممن وصل أليه العدد الأول وأحب الاشتراك في المجلة أن يرسل بدل اشتراكها الزهيد الى الإدارة لنقيده في دفتر الاشتراكات ،وتقدم له الوصول ، ومن لم يحب الاشتراك فيها فعليه ان يعيد المجلة أو يخبر أو يخبر الإدارة بعدم اشتراكه كي لا يبقى بعد حق للمطالبة ويجعلنا بذلك من الشاكرين) .

ولتذليل هذه العقبة التي لم تكن في الحسبان ظهر العدد الثاني من المجلة وتحت كلمة (الرياحين) في غلافها عبارة : (بدل الاشتراك يدفع سلفا).. وترويجا لهذا المنطق الجائع بشرت المجلة قراءها بأنها : (تهدي الى كل مشترك نسخة من ديوان صاحبها تأييدا للولاء بين مشتركيها الكرام .. فعلى المشتركين الذين دفعوا بدل الاشتراك أن يراجعوها لاستلام النسخة المذكورة).

وطبعت باكورة الرياحين في مطبعة الشابندر ببغداد (وهي التي أسسها محمود الشابندي سنة ١٩٠٧)..

ولكن يبدو ان الفكر العراقي ، آنئذ ، كان يقاسي كثيرا من أزمة المطابع . ومن الغريب في الأمر أن الجريدة أو المجلة لم تكن أليفة مطبعة واحدة ، ولذلك رأينا العدد الثاني من الرياحين يهجر مطبعة الشابندر ليطلع من مطبعة دنكور (التي أسسها الجاخام عزرا دنكور في بغداد سنة ١٩٠٢) ، كما رأينا العدد الثالث يعاف دنكور ليطل من مسابك مطبعة الأداب (التي أسستها أحدى الشركات العراقية سنة ١٩٠٩) .. ويبدو- بعد ذلك – أن الرياحين استقرت في هذه المطبعة متمتعة بكفاية مديرها افني فرنسيس الموصلي .

وجاء العدد الأول خلوا من هذه أشارة الى المكان الذي تشغله أدارة المجلة ، ولكن العدد الثاني جعله (في الشارع الجديد من محلة المربعة) في رصافة بغداد .

وصدرت الرياحين في شهر مارت ١٩١٣ واحتجبت بمد مدة وجيزة اختلف مؤرخو الصحافة العراقية في مقدارها .. فذهب الأستاذ السيد عبد الرزاق الحسني الى أنها احتجبت بمد صدور عددها الثالث مباشرة .

وهذا يجانف الواقع ، وقد ألمعت في مطلع هذا البحث الى وجود خمسة أعداد منها بين محفوظاتي .. ويعتقد الأستاذ محمود الجندي أن الرياحين توقفت عن الصدور في ٢٧ أذا سنة ١٩١٤ بسبب قيام الحرب العالمية الأولى ، وهذا يعني – أذا كانت هذه الرواية سليمة – أنها ظلت على الحياة طيلة سنة واحدة .

أن الظاهرة البارزة في الرياحين هي كثرة الغلط المطبعي الذي تبرره سيادة الرطانة التركية في مسالك اللهجة البغدادية ، والى سذاجة اليد العاملة في شؤون الطباعة .

ومحتوى المجلة – جملة وتفصيلا – ليس إلا منتخبات مخطوفة من مجلات وجرائد عربية وعراقية وتركية .. ولا سيما عندما يتعلق الاقتباس بمنازع الفكر الأوربي وبمعالم الحياة الغربية .. وبالرغم من ذلك كانت الرياحين لا تخلو من أصالة وعبارة سليمة وخيال جوال .

أما الغاية من إصدار الرياحين ، فقد كشفها المرحوم إبراهيم صالح شكر في التمهيد الذي استهل به العدد الأول حيث قال : ((كنت قد أصدرت جريدة من قبل باسم (شمس المعارف) ، وقلت في افتتاح العدد الأول منها أنني اصدر لأعلم الصحافيين أن الجريدة الأدبية ذات الروح الخفيفة تجد رواجا بين القراء وإقبالا من الأدباء . وبعد أن اصدر منها ثمانية عشر عدد ظهر أني مخطئ في هذا الاعتقاد بين أبناء هذه البلاد .. لذلك وقفتها . أما اليوم ، فقد طلب مني حضرة الفاضل إبراهيم منيب الباجه جي أن أشاركه بمجلته هذه وتلبية لطلبه قد أخذت على عهدتي تحريرها ومسؤولياتها راجيا لهذه المجلة نجاحا يضمن لها التقدم

أما غايتنا من أنشاء هذه المجلة – هي خدمة هذا الوطن العزيز ببث الفكرة الأدبية بين أبنائه لعلمنا أن الأداب أول حجر في أساس النقد والعمران ،)) .

ولقد استوعب العدد الأول طائفة من الخطرات الجريئة التي تعبر عن النزعة الحرة والأيمان بالله لدى صاحبها ومديرها المسؤول . فتحت عنوان (أيها الفيلسوف) جاء : ((هب من رقادك أنت أيها العليل الملقى على فراش الأوجاع .. وانهض من لجة أحزانك أنت أيها المسكين البائس .. وفر من بين همومك أنت أيها الفيلسوف الجاحد الذي تتعب في حل مسألة الكون المبهمة .. وتعالوا جميعا الى الحقل نزه الخاطر معا

ونتصفح قليلا كتاب الطبيعة الكبير ، علنا نهتدي منه الى غايتنا المنشودة))

وبعد أن يأخذ كاتب هذه الكلمة (وهو هنا مجهول .. وربما يكون إبراهيم صالح شكر ؟) بأيدي هؤلاء الى حيث مراتع الجمال في الحقل .. يتحدى أباطيل فيلسوفه ، ويستهزئ بأوهام دارون .. ثم يتساءل : ((من يدير حركة الحياة فيك ؟ .. ومن يحول طعامك وشرابك الى دم ؟ .. أأنت ، أم أبوك ، أم أمك ، أم طبيعة ..

أم من ..؟ .أجب ولا تهرب !!)) .

وتحت عنوان ((مثلثات)) وجدت : ((ثلاثة اسمح الناس بأبدانهم ، وثلاثة تمر مر السحاب ، وثلاثة تهدم البنية ، وثلاثة تجتنب ، وثلاثة تستوي فيها الخلائق ..)) .. وقد أعجبني منها هذا المثلث الجارح : ((ثلاثة أخوف الناس : المحب من هجر حبيبه ، والمختلي من رقيبه ، وبعض الصحافيين من قانون المطبوعات))

... انه ينقد قانون المطبوعات العثماني الذي اضطهد أصحاب الصحف وأذلهم ، وجعل جرائدهم ومجلاتهم هدفا للتعطيل الإداري بقرار يصدره الوالي أو الوزير وفقا للمادة (٢٣) منه .

أما الصحف الأدبية ، ومنها الرياحين ، فكانت تعيش بلا ضمان ولا رعاية ولا حماية .. وكان الموظف المسؤول يختال امتيازها ، ويكتم أنفاسها عندما يريد أن يتعسف أرواء لشهوة التعسف .

وتحت عنوان ((الشرقيون والمخدرات)) دار الكاتب (وهو مجهول أيضا) حول الشرق ليؤكد انه مريض، متأخر ، حالم

الفرات
استقلال
صدى العراق
٢٢ أيار ٥٦٨٦ جبرائي
مرآة العراق
التجدد
طريق الانقلاب

.. ومما جاء فيه : ((إليك أمثله من تلك المخدرات التي يتخذها الأطباء الشرقيون لمعالجة الأمراض : يتظلم مغلوب ضعيف من ظالم قوي ، فيقال له : اسكت .. فالعين التي تحارب السهم تفقأ . ويعرض التلميذ عن استظهار مباحث البصريين والكوفيين اللغوية ، فيقول له أستاذه : أن الكسالى المتوانيين يختلقون لأنفسهم أعذارا أقبح من الذنوب .

ويسأل الشاب مستفسرا معاني الزوائد الفروعية الدينية ، فيقول له العالم : من لا ينظر بعين الأيمان لا يرى في هذا العالم سوى الضباب والدخان .

وهكذا تمر الليالي اثر الليالي والشرق مضطجع على فراشه الناعم ، يستيقظ دقيقة عندما تلسعه البراغيث ، ثم يعود فيهجع جيلا بحكم المخدرات التي تمازج دمه ، وتسير في عروقه .. فإذا قام رجل وصرخ بالنائمين ، وملأ منازلهم ومعابدهم بالضجيج يفتحون أجفانهم المطبقة بالنعاس الأبدي ، ثم يقولون متثائبين :

ما أخشنه .. ! .. لا ينام ولا يدع الناس ينامون ..

غدا يقرأ الأدباء المفكرون ما تقدم ، فيقولون متضجرين : هو متطرف ، ينظر الى الحياة من الجهة المظلمة، فلا يرى غير الظلام .. وطالما وقف فينا نادبا باكيا علينا متأوها لحالنا . فلهؤلاء الأدباء المفكرين أقول :

أنا اندب الشرق لان الرقص أمام نعش الميت جنون مطبق ... أنا ابكي على الشرقيين ، لان الضحك على الأمراض جهل مركب .. أنا أنوح على تلك البلاد المحبوبة ، لان الغناء أمام المصيبة غباوة عمياء ..

أنا متطرف ، لأني أرى الجيفة المنتنة فتشمئز نفسي ولا استطيع أن اجلس قبالتها وفي يميني كأس من الشراب وفي شمالي قطعة من الحلوى .

فإذا كان هناك من يريد أن يبدل نوحي بالضحك ، واشمئزازي الى الانعطاف ، وتطرفي الى الاعتدال ، فعليه أن يريني طبيبا ماهرا في العادات ، ومتشرعا مستقيما ، وعالما يعمل بما يعلم ، وزوجا ينظر الى امرأته بالعين التي يرى بها نفسه . أن كان هناك من يريد أن يسمعني مطبلا ومزمرا ،فعليه أن يدعوني الى حفلة العرس لا أن يوقعني بين المقابر . اكتب هذا بكل حرية .. حيث أن الاحتشام في أظهار الحقائق هوة نوع من الرياء الأبيض المعروف عند الشرقيين بأسم التهذيب .. وما علي من المستسلمين الى الأحلام اللذيذة اللذين يسيرون على سبل ضيقة مغروسة بالأشواك .. والأزهار محفوفة بالذئاب الخاطفة والبلابل المترنمة)) .

وتحت عنوان ((أسعار السوق)) بلغ النقد مداه من المرارة ، لان (الكذب والنفاق والغش والمداهنة والرياء في المائة ٩١ ، وشتم الدين في المائة ٥٣ أخذ بالارتفاع جدا ، والتباغض والتحاسد في المائة ١٦ في تحسين عظيم ، والتربية والأداب وحسن الأخلاق بكساد عظيم للغاية ، والصدق والاستقامة والأخلاص والأمانة بالمائة (لا حول ولا...) والسوق في هبوط دائم) .

وفي ((عقود ثمينة)) تناصر النقد والحكمة علة توجيه الرأي العام ، ومما جاء تحتها :- ((أنني أفضل الصانع المتفنن على الكويتيه البارد والشويعر المتطفل . وأن السقوط في الشرك سهل ولكن الخروج منه صعب)) .

أما ((أحاسن الأشياء)) فقد انتظمت أسئلة وأجوبة دارت بين احدهم (وهو السائل) وبين فيلسوف إغريقي) وهو المجيب ، وتناول الحوار بينهما أقدم شيء وأجمل شيء وأكبر شيء وأثبت شيء .. وغير ذلك

وتشققت ((الأدبيات)) عن عناوين فرعية ، منها ((الأدب خير نسب)) وجاء تحته قصيدة لابراهيم منيب الباجه جي تتألف من احد عشر بيتا ، ومطلعها :

كن سيدا بالأدب مابين أهل الحسب ومنها ((فاكهة الأدباء)) وتحتها قصيدة لإبراهيم صالح شكر قوامها اثنا عشر بيتا مطلعها : حتام هجرك في الهوى ونواك وعلام هذا السخط بعد رضاك وتحت عنوان ((اللطائف الشعرية)) نوادر مستملحة ، اخترعها شعرا خليل مطران ومحمد أمام العبد وأنيس قربان وفضيل نمر وعبد الغفار خانكان والشيخ اسكندر العازار .

ونسجت أدارة المجلة اقتراحا ، هذا نصه: ((نقترح على الأدباء الكرام تشطير وتخميس هذين البيتين . والجائزة للمجيد اشتراك سنة في الرياحين . وهما : تعب يطول مع الرجاء لذي الهوى خير له من راحة بإياس لو لا مجيئكم لما عاتبتكم ولكنتم عندي كبعض الناس وأنا اجهل الذي استأثر بالجائزة ، ومدى استجابة الشعراء لهذا الاقتراح .. ولكني وجدت في العدد الثاني تحت عنوان ((أجوبة الاقتراح)) ما يلي : ((ورد الى أدارتنا تخميسان على البيتين اللذين اقترحنا تخميسهما في العدد الماضي ، فأدرجناهما تحت هذا الشرح بلا ترجيح انتظارا الى أن تبلغ التخاميس حـــد اللازم)) .

وكان ممن اشترك في تنفيذ هذا الاقتراح الأساتذة اللذين أشارت إليهم الرياحين في أعدادها : الثاني والثالث والرابع ، وهم : عبد الرحمن البناء . و « ب . ت .»، و فلوجي زاده الحاج مهدي ، وعبد الوهاب ملوكي ، وناجي .

وتناول العدد الأول أيضا « ضلالات الإنسان» بعد أن قدم لهم قلم التحرير بقوله : « كتب القاضي رنتول في لندن ثلاث عشر ضلالة في الحياة وقال في أخرها : أذا تحامى الإنسان هذه الضلالات : « أمن العثار طول حياته ... ولما كانت فلسفة رنتول جديرة بالدرس ، رأينا أن نتحف بها قراء الرياحين « .

ومن تلكم الضلالات : « أن يحاول سبك الأخلاق كلها في قالب واحد « . ومما يجب أن لا اكتمه هو أن المجلة نشرت اثنتي عشرة ضلالة وغابت عنها واحدة .

وفي ما أدرجته المجلة تحت عنوان « أيها المزارع « تجلى الروح العلمي ، ونجمت البادرة البكر في علاج الأرض .. حيث جاء : « يجمل بنا نحن الكتاب كافة أن نواصل البحث في الزراعة ، لأنها المصدر الوحيد للثروة والعمل الأول في جلب الخيرات والبركات والطيبات من الثمرات .. بل هي السعادة لكل حي .

أن معظم بلادنا – بلاد زراعية . وأكثر أراضينا مزارع وحقول وبساتين وكروم وبيادر من فضة مدفونة .. نزرع السنبلة ، اليوم ، فتعطينا خمس سنابل . ونغرس الحبة فتحمل عشر حبات .. ولكن أذا استحضر فما ألات الزراعة الحديثة ، وحرثنا بها الأرض على أصول الفن وقواعد العلم .. نأخذ من السنبلة مائة سنبلة وتعطينا الحبة ألفا من الحبوب كما هو مشاهد في أوربا وأمريكا .. في حين أن بلادنا أطيب تربة ، وأصلح مغروسا ، وأجود كفا ، أجرى بنانا «

وتحت عنوان « كل من « نفحة رائعة من نفحات الأيمان ، فـ «كل من له المام بمعرفة الواجب ، وكل من شعر بما أن له وعليه من الحقوق ، وكل من سعى وراء غاية لا طمع فيها .. فذلك الشخص مهما كانت معرفته ومنزلته ، أقر لم يقر ، رضى أم لم يرضى – أنه يؤمن بالله ، ويقر بوجود الخالق « .

وتحت « أيها النهر !! « نجوى شاعرية ، تتدفق فلسفة .. وهذه أمشاج منها .. « كنت ينابيع صغيرة أيها النهر .. أجدتها الأمطار المتبخرة على الأرض .. تسير على الحصباء متغلغلة بين الحصى ، يجمعها تارة ، ويفرقها أخرى .. الى أن ضمت الى بعضها قليلا فأصبحت جداول لا تذكر . بيد أن الجداول الصغيرة اجتمعت وإذا بك النهر الكبير ، يهتم بك الجميع . لقبوك بإسمك ، وسموك في الخرائط ، وزادتك السواقي قوة فوق قوة .. فجئت تنصب في أديتك النهائية «

أما « فكاهات « العدد فكانت أربعا ، أجملها ما يلي : « الأول ـــ أريد أحيانا أن أتمرن على الكتابة ، ولكني استصعب انتقاء الموضوع .

الثاني ـــ أكتب في موضوع : الدهر عدو الأدباء « .

وفي المجلة ، غير هذا ، ما يستوقف القارئ يدعو الى التأمل فتحت عنوان « يغيظني « سجل الكاتب ما أراد أن يقول بكل ما يملك من جرأة وشجاعة .. وهذا هو يقول : يغيظني « أن أرى الخداع و الغش يظهران في أعظم رجال وضعنا بهم الثقة في الأمور الحيوية ، والذي يحث الناس على التبرع لأجل الوطن وهو لا يتبرع بنصف معليك لفقير ،والصحافي الذي متى شعر بان الكذبة كبيرة يقول بلغنا ذلك عن مصدر وثيق ، والصحافة

العربية لأنها أصبحت ميدانا لمباراة المتطفلين على موائد الكتابة والصحافي الذي يملأ جريدته أو مجلته بالمناداة بالدين والوطنية وهو مجرد من الأمرين « .

وعلى النقيض من ذلك كان من تحت عنوان « يبهجني « ، فالذي « يجعل نشر الحقيقة غرض حياته «أنما هو أحد خدمة الحق والخير ، وهذا حقيق بأن يكون من مصادر البهجة . واستوعب موضوع « الدواء الشافي» ما يجب أن لا يجهله المرء في علاج ضعف السمع ، وألم القلب ، والفشل ، وسوء الهضم .. وغير ذلك .

ومما جاء في هذا الصدد : « أن كنت مصابا بداء الكسل فليس لك دواء غير القبر .. وهذا هو الدواء الشافي لمرضك « .

وفي « المنتخبات « الطريف الطريف من الأخبار ، فهنا سؤال عما يحل بالملكات فيما لو جار الزمان وخسرن أزواجهن ومقامهن . وهناك ما يضارعه عن الملوك وفي مكان أخر ما يبشر الناس بأمكانية نقل الأطفال بطرود بريدية خاصة .

كما تضمنت هذا المنتخبات معلومات جديرة بالإهتمام عن عدد الكلمات القاموسية عند الأنكليز ومقارنتها باللغات : الألمانية والفرنسية والأسبانية و الأيطالية ، عما يجب أن تقوم به المرأة الهندية في حياتها الخاصة ، فهي مثلا « أذا غاب زوجها وجب عليها أن تصوم على الأرض مدة غيابه « .

أما حكاية العدد الأول الرياحين فهي قصة فرنسية خفيفة ، استغرقت صفحة واحدة . والقارئ الذي يأتي عليها سيجد في النهاية «أعلانا» عن بيع ديوان إبراهيم منيب الباجه جي بثلاثة غروش صاغ لمن كان في خارج بغداد .. « فلينتهز الراغبون هذه الفرصة «.

ذلكم هو محتوى العدد الأول من الرياحين ولا يملك القارئ بعد أن يعلم أنها كانت تصدر أيام الأحتلال العثماني في بغداد ـــ الأ أن يتعجب ، ويستغرق في تفكير عميق ، ويحني رأسه تحية لمن وقف حياته على خدمة العراق .

جريدة الاتحاد 1987

قراءة في مذكرات (الخاتونة) مس بيل عن العراق

عباس بغدادي
مؤرخ راحل

سر نجاحها في قهر الصحراء التي أحبتها كان شجاعتها وقدرتها علي احتمال المشاق وتفهمها للناس وظروفهم

حلمت بقطع الجزيرة من شرقها لغربها.. احتجزها أمير شمر كأسيرة محترمة وعادت لبغداد كسيرة الخاطر

نجدة فتحي صفوة بعد الاحتلال البريطاني للعراق . خلال الحرب العالمية الاولي . وفي السنوات الاولي لقيام الحكومة العراقية تحت الانتداب البريطاني، وفي وقت كانت فيه المرأة العراقية ما تزال رهينة خدرها، ولم يكن من المألوف فيه ان تشارك في الحياة العامة، ظهرت في مجتمع بغداد امرأة انكليزية فريدة، احتلت مكانة بارزة، ومارست نفوذا واسعا في تأسيس الادارة الجديدة، وفي حكم البلاد، وشاركت في حياتها السياسية، ودخلت مجتمع الرجال بلا تحفظ، فجالست ساسة البلاد وحكامه من عراقيين وبريطانيين، وشيوخ العشائر من عرب وكرد، ورجال الدين من سنة وشيعة، وزعماء البلد ووجوهه من موالين للسلطة ومعارضين.

تلك هي مس بيل التي وان كانت صفتها الرسمية سكرتيرة شرقية للمعتمد السامي البريطاني في العراق، فإنها . في الواقع . كانت كما لقبها الكثيرون، ملكة غير متوجة للبلاد، لها في كل مجتمع صوت، وفي كل قضية رأي، وفي كل مقام مقال.

وليس من الاسرار التاريخية ان مس بيل كانت احدي الشخصيات التي رسمت، مستقبل العراق السياسي لسنوات عديدة بعد الاحتلال البريطاني، وكان لها دور كبير في تأسيس الحكومة العراقية الجديدة وربما في نصب فيصل الاول علي عرش العراق.

وسأحاول الآن، وفي نطاق ما يستوعبه الوقت المحدد، ان اقدم لمحات عن حياة غيرترود بيل ورحلاتها ومسيرتها في العراق، مع عناية خاصة بالنواحي التي هي معروفة أقل من غيرها نسبيا عن حياة هذه المرأة التي كان العراقيون يسمونها (الخاتون) ويدعوها الملك فيصل الاول (اختي)، ويخاطبها السيد عبد الرحمن النقيب بـ(ابنتي)، ويلقبها عبد المجيد الشاوي . مازحا . بـ(ام المؤمنين)، ويسعي اليها الساسة والوجوه والشيوخ واصحاب الحاجات، ويستأذنها بعضهم حتي في زيارة المعتمد السامي، او مواجهة الملك فيصل الاول، ويستشيرونها في الامور المهمة، ويعطون بتوجيهها. هذه هي المرأة التي كانت تضع مشروعات القوانين، وترشح الوزراء، ويحسب لرأيها حساب في وزارتي الخارجية والمستعمرات، وتعد من موجهي سياسة بريطانية في العراق في عهدي الاحتلال والانتداب.

هل كانت مس بيل صديقة للعراق حقا؟ ام كانت قبل كل شيء مغامرة تجوب الآفاق، متعتها وهواها في ركوب الاسفار، ومشاهدة غرائب الامصار، والبحث عن نوادر الآثار؟

نالت غيرترود بيل شهرة لا بأس بها بمؤلفاتها الاولي عن رحلاتها وتنقيباتها الاثرية في الشرق الادني، وفي شمال الجزيرة العربية قبل الحرب العالمية الاولي، ولكن هذه الشهرة كانت محصورة في نطاق معين، وقاصرة علي الاوساط الاكاديمية، وعلي المعنيين بالشؤون الشرقية وعلم الاثار، وشهرتها الحقيقية انما جاءت من رسائلها التي نشرتها بعد وفاتها بسنة واحدة تقريبا.

ان مس بيل . لحسن الحظ . من الاشخاص الذين يمكن ان تستخلص سيرتهم من رسائلهم، وهذه الرسائل التي كانت تبعث بها الي والديها غالبا، والي بعض اصدقائها المقربين احيانا، باستثناء فجوات قليلة، تغطي حياتها كلها منذ ايام طفولتها في شمال انكلترا، الي مرضها الاخير في بغداد، في تموز (يوليو) سنة ١٩٢٦ . وكانت تكتبها من البلدان التي تسافر اليها. واهمها بطبيعة الحال واحفلها بالمعلومات التاريخية، هي التي كانت تبعث بها من العراق خلال السنوات العشر الاخيرة من حياتها، وهي اشبه ما تكون بالمذكرات او اليوميات، وكانت تكتبها بصورة متعاقبة، وفي فترات قصيرة، وتضمنها وصف كل ما تزوره من اماكن، او تشهده من احداث، او تقوم به من اعمال، وكل ما يعن لها من خواطر ازاءها، او ما يبلغها من اخبار واشاعات بحكم عملها ضابطة استخبارات اولا ثم سكرتيرة شرقية لدار الاعتماد في ما بعد.

كانت غرترود بيل قادرة في نهاية يوم سفر حافل ومتعب، علي تدوين وصف كامل لما شهدته وسمعته في رسائل كانت في كثير من الحالات تبلغ بضع صفحات كبيرة، ذات اسطر ناعمة متراصة، مكتوبة بسرعة كبيرة، وغير خالية من الاخطاء الاملائية. وقد جرت علي هذه العادة يوما بعد يوم وعاما بعد عام، خلال فترة تزيد عن خمسين عاما. وكانت رسائلها الموجهة الي والديها بصورة خاصة تحتوي علي كثير من المعلومات الرسمية والسرية، والاراء والملاحظات الشخصية، ولم يكن ليطلع عليها احد سواهما. وكانا يحتفظان بها في حرز حريز بسبب اهمية المعلومات التي تتضمنها، حتي اصبحت هذه الرسائل تؤلف في مجموعها وثائق تاريخية خطيرة وخاصة عن الحالة السياسية والاجتماعية في العراق، وسجلا حافلا بالمعلومات النادرة والدقيقة عن الاسلوب الذي كان متبعا في حكم العراق، وطراز تكفير البريطانيين العاملين فيه، وطريقة تعاملهم مع العراقيين وآرائهم الحقيقية فيهم، وكيفية اتصال العراقيين بالانكليز، وعلاقات مختلف الشخصيات العراقية في ذلك العهد بهم.

ولما نشرت رسائل غيرترود بيل للمرة الاولي في سنة ١٩٢٧ (وكانت قد رتبتها واعدتها للنشر زوجة ابيها الليدي بيل) حذفت منها الرقابة امورا كثيرة وجدت ان الوقت لم يحن بعد لنشرها، وخاصة فيما يتعلق بمن ورد ذكرهم من الاشخاص الذين كانوا ما يزالون علي قيد الحياة. وعلي اثر صدورها كتب الرحالة المعروف فيلبي رسالة الي محرر جزيرة اوبزرفر شدد فيها الوطأة علي قلم الرقابة، وقال انها شوهت تلك الرسائل ومسختها. وضرب علي ذلك عدة امثلة.

ومع ذلك فقد كان نشر تلك الرسائل حدثا خطيرا، اذ قامت بسببها ضجة كبري، واحتفلت لها الصحافة احتفالا كبيرا. وقد نشرت جريدة تايمز اللندنية بمناسبة صدورها مقالة افتتاحية عن غيروترود بيل واعمالها، اتبعتها بمقالتين مفصلتين تضمنتا عرضا للرسائل وتقييما لها. وجاء في افتتاحية التايمز (٢٢ آب/ اغسطس ١٩٢٧): علي الرغم من أن وفاة مس بيل كانت خسارة عامة عظيمة، فان سيرتها كانت دليلا علي ان طول الحياة ليس شيئا مذكورا الي جانب غزارة ما تحفل به .

وقد راجت رسائل المس بيل رواجا عظيما، فأعيد طبعها سبع مرات خلال اربعة اشهر ومرات عديدة اخري بعدها. وبعد ان كانت مس بيل معروفة في العراق بصفة خاصة، وبين بعض الاوساط المعنية بالشؤون الشرقية في خارجه، فان نشر رسائلها جلب لها شهرة عالمية واسعة.

سيرة المغامرة

وفي سنتي ١٩٦٠ و١٩٦١ نشرت اليزابيث بورغوين سيرة غيرترود بل مستقاة من رسائلها واوراقها الشخصية في جزأين يتضمنان فقرات طويلة مقتبسة من تلك الرسائل. وقالت في مقدمتها في الوقت الذي صدرت فيه طبعة (الليدي بيل) كان التنقيح ضرورة سياسية. ولكنني في هذين الجزأين تمكنت من الافادة بصورة كاملة من جميع رسائلها ويومياتها، فلم احذف منها شيئا ذا اهمية سياسية كانت ام شخصية، ولم اقم . عن طريق اضافة عبارات خارجة عن الصدد . بأي تحريف في معانيها الأصلية في اي موضع. ففي رسائلها التي بلغ عددها الألوف، وفي ١٤ مجلدا من اليوميات التي خلفتها، كتبت غيرترود بيل حياتها، كما انها عرضت الخفايا السياسية في عهدها .

وعلي الرغم من ان الجزأين اللذين نشرتهما اليزابيث بورغوين يحتويان علي أهم المعلومات عنها، فان قصة المس بيل لم تكتب بعد كما ينبغي لها. وهي قصة امرأة عاطفية، ذكية، مثقفة، تهوي الآثار، وتعشق الاسفار، ولا يقر لها في مكان قرار. احبت مرتين، وفجعت بحبها في كلتيهما، فالتمست النسيان والسلوي في الرحلات، تارة في مدن ايران تتعلم الفارسية وتدرس آدابها، وطورا في جبال الالب تتسلق قممها وتغالب ثلوجها واعاصيرها. ثم في صحاري الجزيرة العربية، تتحدي رمالها وتقتحم مجاهلها، وتتعرف علي قبائلها. واخيرا في العراق تسهم في تأسيس دولته الجديدة، ورسم مستقبله، وتوجيه سياسته.

ان النهج الذي نهجته غيرترود بيل في حياتها، والمهمات التي اضطلعت بها، كان كله من اختيارها وصنعها، واما ما واجهته من اقدار، فلم تكن لها حيلة ازاءها.

وهي كبري بنات السير توماس هبو بيل ، من اكبر رجال استخراج الحديد في يوركشاير. ولدت سنة ١٨٦٨ في مدينة درهام ، وماتت امها وهي في الثالثة من عمرها اثناء ولادة اخيها موريسو ، فتزوج ابوها ثانية من فتاة اسمها فلورنس وهي ابنة السير جوزيف اوليفي، طبيب السفارة البريطانية في باريس. ولذلك نشأت غرترود لا تعرف اما سواها، وهي تدعوها أمي في رسائلها الكثيرة التي كتبتها اليها في ما بعد. وكانت اخت السير جوزيف اوليفي متزوجة من السير فرانك لاسلز الذي كان من الدبلوماسيين البريطانيين البارزين في زمانه.

تلقت غيرترود تعليمها اولا في (كينغ كوليدج)، وكانت تلميذة ممتازة في كل شيء سوي الموسيقي والخط. ثم دخلت جامعة اوكسفورد، وحصلت علي مرتبة الشرف الاولي في التاريخ الحديث وهي دون العشرين من عمرها، وكانت اول فتاة تحصل علي هذه المرتبة من تلك الجامعة المتزمتة.

وكانت السنوات العشر التي اعقبت تخرجها حافلة بضروب منوعة من النشاط، من قيام بخدمات اجتماعية في لندن ويوركشاير، وتسلق جبال الالب في سويسرا وايطاليا، ورحلة حول العالم، وزيارات طويلة الي السير فرانك والليدي لاسلز في العواصم التي كانا يمثلان بريطانيا فيها: بخارست وطهران وبرلين.

وخلال وجودها في ايران درست غيرترود اللغة الفارسية وتعلمتها الي حد استطاعت معه ان تنشر في سنة ١٨٩٧ ترجمة لديوان الشاعر الفارسي حافظ الشيرازي، فنالت الترجمة نجاحا لا بأس به، وقد سبق لها ان نشرت قبل ذلك ببضع سنوات كتابا آخر بعنوان صور فارسية استوحته من سفرنامة ، ولكنه كان غفلا عن توقيعها لأنه كان في رأيها تافها.كانت زيارة غرترود الي طهران من أسعد الفترات في حياتها علي الرغم من النهاية المحزنة التي انتهت اليها. فقد تعرفت هناك علي ملحق شاب بالمفوضية البريطانية يدعي هنري كادوغان كان يشاركها حبها للشعر، وسرعان ما وقعت في غرامه، وأعلن الاثنان خطبتهما. وكتبت غيرترود الي ابويها تزف اليهما النبأ، ولكنهما كانا . فيما يبدو . قد سمعا بما يثقل كاهله من ديون، وما يتصف به من طباع صعبة، فطلبا اليها ان تنتظر. وكانت غيرترود قد بلغت سن الرشد، واصبحت مستقلة في امورها حرة في تصرفها، ولكنها مع ذلك انصاعت لطلبهما، وعادت الي انكلترا فورا. وبعد تسعة اشهر توفي هنري كادوغان علي اثر مرض قصير.

وعلي الرغم من ان بلاد فارس والأدب الفارسي استوليا علي خيالها وتفكيرها في البداية، فان البلاد العربية استهوتها في ما بعد، وملكت عليها نفسها وكان لها اثر ابعد وابقي في حياتها. وقد قرأت غيرترود كتاب الرحالة دوتي عن اسفاره في البلاد العربية، وشغفت به في وقت لم يكن قد لفت الانظار

اليه في انكلترا بعد، فجذبها الي الحياة العربية والصحارى العربية والأدب العربي. واخذت ترحل اليها وهي ما تزال جزءا من الدولة العثمانية، كما صارت من سنة الى اخرى ترقب انبعاث الشعور القومي العربي ونموه خلال الفترة الاخيرة من حكم السلطان عبد الحميد، وفي عهد جمعية الاتحاد والترقي، وتتابع باهتمام ما يجد في الشرق الادني من تحولات سياسية، وما يحدثه النفوذ الغربي المتزايد من آثار، ولكن اهتمامها الكبير، ومتعتها الحقيقية كانت في الحياة الشرقية: العادات الغريبة عنها، ازياء الطبقات المتواضعة بألوانها الزاهية، آراء الطبقات الحاكمة وطراز تفكيرها، ومدي تمسكها بالاساليب القديمة او اكتسابها تدريجيا مظاهر المدنية الحديثة.

قامت مس بيل برحلتها الاولي الي الشرق الادني سنة ١٩٠٥ مخترقة فلسطين وحوران وشمال سورية علي ظهور الخيل. وكانت خلال ذاك قد تعلمت من اللغة العربية ما مكنها من عقد اواصر الصداقة مع عدد غير قليل من الناس في تلك المناطق. وقد وضعت كتابا وصفت فيه هذه الرحلة سمته الصحراء والمعمورة ونشرته في سنة ١٩٠٦. وفي هذا الكتاب ظهر اهتمامها بالعرب وشغفها باللغة العربية وآدابها للمرة الاولي، وربما كان ابرع كتبها. وهو كتاب تفوح منه رائحة الصحراء ونسائمه جذابة طرية، ومع ذلك لا تطغي فيه العاطفة الجامحة علي الاحكام العقلية المتزنة. وقد صدرت الكتاب ببيت من الشعر العربي لتأبط شرا، هو:

يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدي
بحيث اهتدت ام النجوم الشوابك

وكانت غيرترود خلال هذه الفترة تهتم بالآثار القديمة التي تمر بمواقعها خلال رحلاتها، حتي اعدت نفسها، بدون دراسة جامعية منظمة، لتكون باحثة اركيولوجية، فقامت في سنة ١٩٠٧ بتنقيبات وحفريات أثرية في مواقع الحثيين والبيزنطيين في منطقة بيك بيركليسه في تركيا، بالتعاون مع السير وليم رامزي الذي تعرفت عليه في مدينة قونية . وفي تلك المدينة ايضا تعرفت علي رجل انكليزي آخر . لا نعرف عنه الكثير . قدر ان يكون له في ما بعد شأن كبير في حياتها ومستقبلها، وهو الكابتن تشارلز دوتي . ويلي. وقد ظهرت نتائج ابحاث غيرترود والسير وليم رامزي في كتاب مشترك صدر في سنة ١٩٠٩ بعنوان الف كنيسة وكنيسة . وكانت تجارب غيرترود في مجال الآثار القديمة ستصبح ذات فائدة كبيرة لها حين عملت علي تأسيس المتحف العراقي في بغداد بعد ذلك بخمسة عشر عاما تقريبا، مما سنتحدث عنه في حينه.

وفي السنة التالية بدأت غيرترود رحلة اخرى، اكثر طموحا، فسافرت من حلب منحدرة علي نهر الفرات، ثم اخترقت الصحراء التي كانت خالية من الطرق المطروقة، باحثة في طريقها عن آثار القصور القديمة، وكانت قد سمعت كثيرا من الروايات عن الاخيضر ، فاجتازت الصحراء مرة اخري الي منطقة قبائل الدليم، وبعد مسيرة اربعة ايام كانت في موقع الاخيضر ، ثم عادت بطريق بغداد والموصل الي آسيا الصغرى.

ووصفت غيرترود بيل هذه الرحلة في كتاب من أشهر كتبها وهو من مراد الي مراد الذي صدر في سنة ١٩١١. وفي هذا الكتاب يحتل البحث الاركيولوجي والطوبوغرافي في اراضي ما بين النهرين الهادئة على حدود العراق الشمالية قسما لا يقل في اهميته عن تقديراتها للاوضاع السياسية في الشرق الادني وانطباعاتها عن ثورة تركية الفتاة ، اضافة الي عدد كبير من الصور الفوتوغرافية التي التقطتها خلال الرحلة. وكانت غيرترود بيل كبيرة الاهتمام بالتصوير الفوتوغرافي منذ ذلك الوقت المبكر في تاريخ هذا الفن، ومن اوائل من ادرك قيمته الوثائقية.

وقد صدرت هذا الكتاب ايضا ببيت آخر من الشعر العربي للشاعر الجاهلي لبيد هو :

بلينا وما تبلي النجوم الطوالع
وتبقي الجبال بعدنا والمصانع

وكانت مولعة بهذا البيت كثيرة الترداد له.

وعادت غيرترود بيل الي تنقيباتها الأثرية في الاخيضر في سنة ١٩١١ ونشرت نتائج تلك التنقيبات في دراسة بعنوان قصر الاخيضر وجامعه وهو كتاب ضخم صدر في سنة ١٩١٤ وكان اهم ما نشرته من دراسات اركيولوجية.

حب جديد

كانت غيرترود بيل خلال هذه الفترة تراسل الكابتن تشارلز دوتي . وايلي الذي سبق ان تعرفت عليه في قونية. ولما تكررت مراسلاتهما وتتابعت، اصبح من الواضح لها انها تقع في شباك حب جديد. والتقي الاثنان في لندن في سنة ١٩١٢ ثم في سنة ١٩١٣.وكانت المشكلة ان دوتي . وايليي كان متزوجا، وكانت زوجته خلال زيارة غيرترود الثانية غائبة عن لندن، ولكن العلاقة بين الاثنين.فيما يبدو .لم تكن سرا، لان غيرترود كانت تدعوه الي يوركشاير، فيذهب لرؤيتها، ويحل ضيفا في دار والديها.

وعرض عليها دوتي . وايلي الزواج بعد ان يطلق زوجته، ولكنها رفضت قائلة انها لا تستطيع ان تبني سعادتها علي صرح بيت مهدم. وبقيت بين نارين، يمضها حبها تعذيبا، ويأبي ضميرها ان ينصاع لنداء القلب. فكانت تمر بها فترات من الكآبة واليأس تجعلها علي شفا الانتحار. حتي قررت اخيرا ان تقوم بمغامرة جديدة، فتذهب الي الصحاري العربية التي ما فتئ سحرها يجتذبها.

وكان المشروع الذي تفكر فيه منذ مدة طويلة هو القيام برحلة عبر الجزيرة العربية من غربها الي شرقها، وهي منطقة لم يصلها اوروبي منذ عشرين عاما، ولم تصلها امرأة اوروبية قط، باستثناء الليدي آن بلنت. فمضت في مشروعها قدما، علها تبتعد عن الجو الخانق الذي احاط بها في انكلترة، وتجد في مغامرتها الجديدة شيئا من السلوي.

بدأت غرترود بيل رحلتها الصحراوية الجديدة من دمشق في بداية سنة ١٩١٣وكتبت قبل مغادرتها رسالة تضمنت هذه الصرخة اليائسة.

لا بد للعالم ان يمضي وشأنه زمنا من دوني. لو عرفت كيف أجيء، علي ثري الجحيم لوجدتني مصيبة في التماس اي مخرج. انها في معظمها غلطتي، ولكن ذلك لا يغير من كونها سوء حظ لكلينا. انني اذهب بعيدا عنه الان.. والزمن كفيل بقتل اكبر المطالب .

وتمكنت مس بيل بعد سفرة مضنية من الوصول الي معاقل شمر في حايل، ولكنها لم تتمكن من الذهاب ابعد من ذلك. وكان امير حايل غائبا، وصلاته مع جاره الجنوبي امير نجد عبد العزيز بن سعود سيئة. فتخوّف نائب امير حايل من السماح لامرأة اوروبية مسيحية بالمرور الي بلاد سكانها محافظون متعصبون لتقاليدهم، واحتجزها في حايل، فكانت اشبه بسجينة او اسيرة محترمة، ولم يسمح لها بمواصلة رحلتها، فاضطرت الي العودة الي بغداد في نيسان (ابريل) ١٩١٤، فوصلتها متعبة خائرة القوي، كسيرة الخاطر لاخفاقها في المشروع الذي فكرت فيه سنوات طويلة، وعلقت عليه آمالا عريضة. ولكنها مع ذلك حصلت خلال هذه السفرة علي ذخيرة كبيرة من المعلومات الجغرافية، وتعرفت علي عدد كبير من الاشخاص في شمال الجزيرة العربية، واطلعت علي التيارات السياسية والعلاقات القبلية في تلك المناطق، مما كان سيعود عليها بفائدة كبيرة في عملها في المستقبل، ذلك العمل الذي لم تكن بعد لتعلم شيئا عنه، ولم يمر بخلدها

قبر المس بيل

مرورا. فكان تقييمها لامير نجد عبد العزيز بن سعود.مثلا .بأنه: اهم شخصية في وسط الجزيرة العربية . وقد سجلت هذا الرأي في ذلك الوقت المبكر الذي كانت فيه شخصية الملك عبد العزيز غير معروفة في العالم الخارجي، ولم تكن الاحداث قد اظهرته علي مسرح السياسة العربية والدولية بعد.

وكانت غيرترود بيل تقوم بمعظم رحلاتها المحفوفة بالمخاطر دون ان يصحبها رفيق سفر، ولم يكن معها سوي خادم واحد. وهي لم تحاول قط، في اي مكان حلت فيه ان تخفي هويتها او كونها امرأة. بل انها كانت تعتقد ان كونها امرأة هو خير حماية لها بين عرب الصحراء الفخورين بعاداتهم، والذين يحترمون الثقة التي توضع فيهم، ويعدون حماية الضيف، والذود عن ماله وعرضه، من واجبات المروءة والشرف.

ويري كل من كتب عن مس بيل ان سر نجاحها في قهر الصحراء التي احبتها احيانا، واحتوتها اخري، هو انها فضلا عن بنيتها القوية، وقدرتها العجيبة علي احتمال المشاق، جمعت بين الشجاعة المتناهية، والتفهم السريع لكل من تجعلها الظروف علي اتصال بهم من الناس، علي اختلاف بيئاتهم وعقلياتهم.عادت مس بيل الي انكلترة في آذار (مارس) ١٩١٤، فمنحتها الجمعية الجغرافية الملكية وساما ذهبيا تقديرا لرحلتها الصحراوية الاخيرة، ولكنها لم تتمكن من سرد قصة هذه الرحلة في كتاب كما فعلت بعد رحلاتها السابقة، مع انها كانت من اهمها واحفلها بالمغامرات، فقد حال دون وضعها كتابا عن رحلتها الي حائل نشوب الحرب العالمية الاولي بعد عودتها بشهور قلائل، وقرارها بأن تتطوع للقيام بعمل ما لخدمة بلادها خلال الحرب. وقد انتمت الي مكتب اسسته منظمة الصليب الاحمر للبحث عن المفقودين والجرحي في بولون بفرنسا.

وخلال وجودها في لندن لقيت الكابتن دوتي . وايلي مرة اخري. وكانت جذوة الحب بينهما . فيما يظهر . ما تزال متقدة. وفي ذلك الوقت صدرت اليه الاوامر بالالتحاق باحدي الوحدات التي كانت تقاتل في غاليبولي (جناق قلعة) في الدردنيل. فقضت معه بضعة ايام قبل سفره. وفي ٢٠ نيسان (ابريل) كتب اليها من ساحة القتال قائلا:

عزيزتي: الليلة سأجمع كل رسائلك، وأرزمها، وأتركها معنونة اليك . وكأنه كان يشعر بمصير محتوم قريب، لانه اكد عليها في هذه الرسالة ان لا تفكر في الانتحار او تقوم بمحاولة من هذا القبيل .. لان ذلك سيجعل روحي في عالم بعيد آخر، اكثر حزنا واضطرابا .وكانت اقامة غيرترود بيل في لندن، بعد سفر داوتي . وايلي اقسي فترة في حياتها، لم تذق فيها طعما للراحة ولا للسعادة، فقد كان اخوها موريس في جبهة القتال في فرنسا، والرجل الذي احبته في اهوال القتال في الدردنيل.وكانت اخت غيرترود لأبيها الليدي ريتشموند تقيم في منطقة هامبستيد في لندن، وكانت غيرترود تتردد عليها او تخاطبها بالتلفون كلما اثقلتها الهموم، فتجد شيئا من الراحة. وبينما كانت غيرترود تتناول الغداء مع بعض اصدقائها في لندن، بلغها ان الكابتن دوتي وايلي قتل في الدردنيل وهو يقود مفرزة استرالية. فذهبت بأسرع ما تستطيع الي اختها، وهي في حالة من الذهول واليأس والأسي. فلما رأتها اختها حسبت بادئ الامر ان اخاها قتل في الحرب، ولكن غيرترود صرخت قائلة: لا.. ليس موريس . وسقطت علي احد الأرائك تجهش بالبكاء.

وبينما كانت غيرترود بيل في غمرة حزنها وحيرتها فتح امامها بصورة مفاجئة تماما، باب جديد الي الشرق. ففي خريف سنة ١٩١٥، حينما كانت بوادر حركة قومية عربية منظمة تظهر الي الوجود وتتبلور، اخذت السلطات البريطانية في القاهرة تستخدم عددا من الاشخاص الذين لهم معرفة سابقة بالبلاد العربية، وخبرة في شؤونها، للعمل في مكتب استخبارات انشأته هناك باسم المكتب العربي . وكانت المهمة الاولي لهذا المكتب اجتذاب تلك الحركة العربية نحو بريطانيا، واستغلالها لصالح الحلفاء. وكان رئيس هذا المكتب الجنرال كالايتن، ومن اعضائه هوغارث، ولورنس، وكورنواليس. فرشحت غيرترود بيل للعمل في هذا المكتب ايضا، لخبرتها في الشؤون العربية، وخاصة في شؤون العشائر، تلك الخبرة التي ظهرت جليا في مؤلفاتها عن رحلاتها في البلاد العربية.

ووصلت غيرترود الي القاهرة في ٣٠ تشرين الثاني (يناير) سنة ١٩١٥، فعهد اليها بمهمة تجميع ما لديها وما يتيسر لها الحصول عليه من معلومات عن العشائر في شمال جزيرة العرب، وتلخيصها وتحليلها، للافادة منها في علاقات بريطانيا مع تلك العشائر واتصالاتها بها. وقد اصبح المكتب العربي في ما بعد مدرسة سياسية عرفت بمدرسة القاهرة، تقابل مدرسة الهند . وكان لاعضائه دور مهم في صياغة سياسة بريطانيا في العراق وفي الشرق العربي بعد الحرب.

وفي كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٦ ارسلت غيرترود بيل في مهمة خاصة من القاهرة الي دلهي بطلب من حكومة الهند التي كانت تعد معجما جغرافيا للبلاد العربية، فرغبت في الاستعانة بما لديها من معلومات وفيرة في هذا الموضوع. وكان نائب الملك في الهند اللورد هاردنغ صديقا قديما لها، فلما أنهت مهمتها هناك طلب اليها ان تمر بالبصرة بطريق عودتها، وكانت الحملة الاستطلاعية البريطانية قد احتلتها.

ووصفها اللورد هاردنغ للسير برسي كوكس، كبير الضباط السياسيين في الحملة البريطانية بأنها امرأة خارقة الذكاء، ولها دماغ رجل، تتكلم العربية بطلاقة وتعرف عن عشائر الصحراء اكثر من اي شخص آخر، ربما باستثناء ليتشمان. وكانت الغاية من إرسالها الي البصرة هي ان تربط بين ما لديها من معلومات عن العشائر العربية، وبين ما كان يصل الي مقر الحملة الاستطلاعية البريطانية التي كانت قد احتلت البصرة قبل ذلك. فكان وصول غيرترود الي البصرة، فيما اريد به ان يكون زيارة قصيرة، بداية صلة جديدة بالعراق. صلة قدر لها ان تستمر حتي اليوم الاخير من حياتها. فقد ألحقت اولا بهيئة موظفي الاستخبارات العسكرية، وبعد ثلاثة اشهر انضمت الي هيئة سكرتارية رئيس الحكام السياسيين، السير برسي كوكس، بصفة ضابط سياسي مساعد، واخذت تقوم بواجبات السكرتير الشرقي. وعلي اثر احتلال بغداد في آذار (مارس) سنة ١٩١٧، وانتقال سلطة الاحتلال اليها، انتقل معها السير برسي كوكس

الموضوع نشر ضمن اوراق الراحل عباس بغدادي في جريدة الجمهورية 1989

جولة
فوق سور مدينة الموصل القديمة

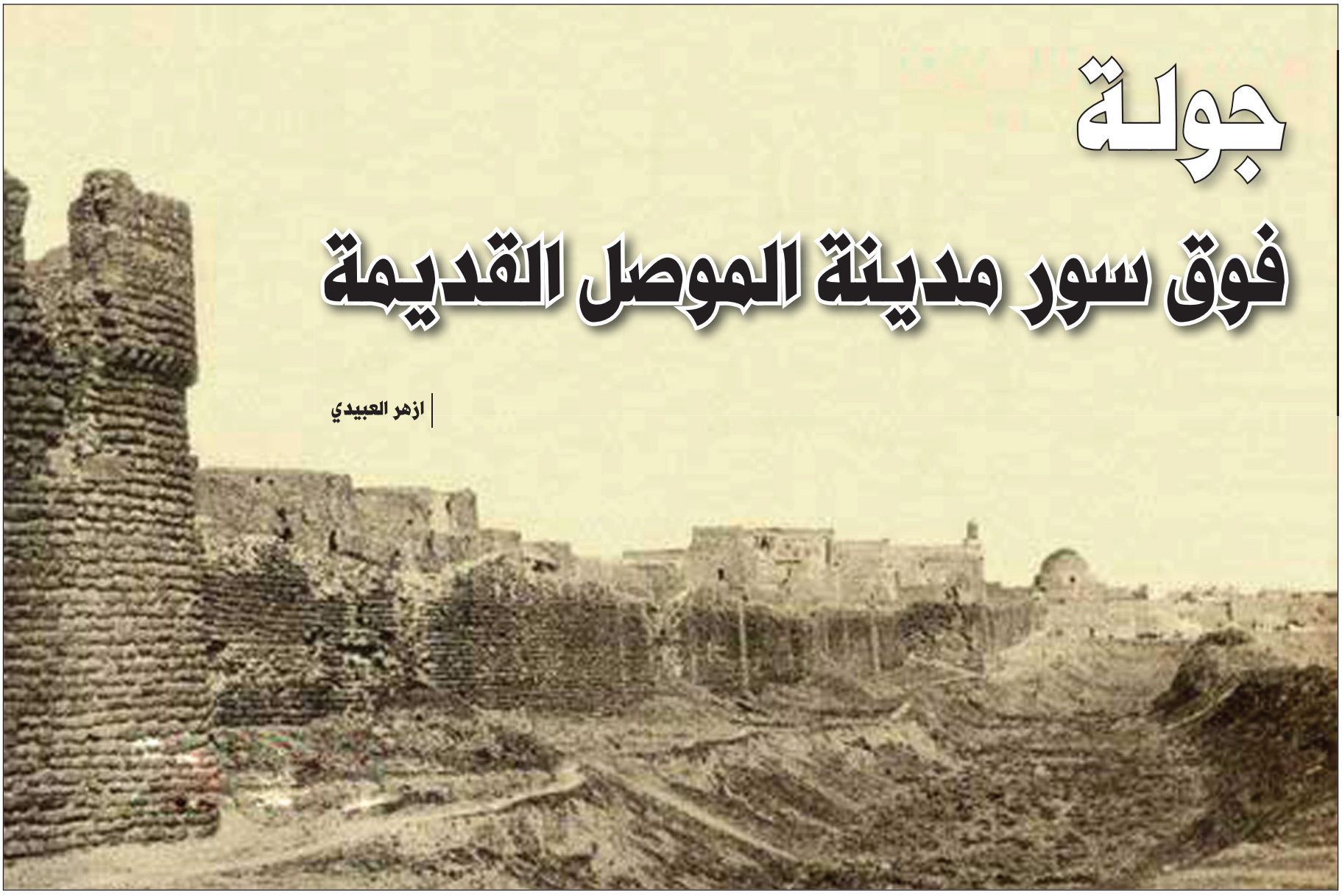

ازهر العبيدي

كان لمدينة الموصل القديمة في القرون الماضية سور يحميها من هجمات الأعداء وغزوات البدو والسراق، وكانت له عدة أبواب لدخول وخروج السكان والقادمين من الخارج. لكن الحكومة العثمانية هدمت معظم أجزاء السور سنة ١٩١٥م، وهدمت بلدية الموصل أجزاء أخرى في الأربعينيات. وبقيت الآن أجزاء من السور في مناطق متفرقة من المدينة ينبغي الاهتمام بها وكشف المخفي منها وترميمه، وإقامة عدد من الأبواب المشابهة للصور المتيسرة عنها لتكون في المستقبل معلماً سياحياً جميلاً يستهوي السياح الأجانب.

إنّ أول سور بني للموصل باللبن والطين سنة ٨٠هـ/٦٦٩م في زمن سعيد بن عبد الملك في عهد الخلافة الأموية، ثم أمر هارون الرشيد بهدم هذا السور بعد حركة الموصل سنة ١٧٧هـ/٧٩٣م. وأعيد بناؤه في عهد شرف الدولة العقيلي سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م. وكان هذا السور الذي سمّي بالسور العقيلي ينتهي شمالاً عند الموقع الحالي للجسر الخامس، وتسمى الأرض الواقعة شماله بـ(أرض البقج) أي أرض البساتين والحدائق مفردها (بقجة). وكان أهالي الموصل يتخذونها أماكن للسفرات والنزهة في فصل الربيع، ويتخذها الجيش ميداناً للتدريب في الأماكن المفتوحة شمال هذه البساتين.

وفي عهد عماد الدين زنكي تم إحكام بناء السور بالجص والحجارة بشكل جيد، وكان يحيط به خندق عميق وله تسعة أبواب هي: الباب العمادي، باب الجصاصين، باب الميدان، باب كنده، الباب الغربي، باب العراق، باب القصابين، باب المشرعة، باب الجسر.

وكان آخر من جدد السور واحكم صيانته هو الوالي العثماني بكر باشا بن إسماعيل بن يونس الموصلي سنة ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م، وأصبح له ثلاثة عشر باباً.

وفي هذا البحث المتواضع سأحاول الطواف في الأماكن التي كان السور يمر منها في السابق، وأشير إلى ما تبقى منه في هذه الأماكن من بقايا قائمة لحد الآن. وسأبدأ الجولة من آثار (باشطابيا) وهي كلمة تركية تعني التل الكبير أو الطابية العالية، وتقع في النهاية الشمالية الشرقية من السور، وكانت موقعاً عسكرياً للقائد الموصلي حسين باشا الجليلي والي الموصل عندما هاجم (نادر شاه) الفارسي مدينة الموصل سنة ١١٥٦هـ/١٧٤٣م. لكنّ هذه القلعة تهدمت بمرور الزمن لعدم صيانتها على الرغم من التوصيات العديدة والدراسات التي أعدت حول ترميمها، وإقامة نصب كبير يحكي مأثرة صمود هذه المدينة البطولي بوجه الغزاة.

أول باب في السور يقع تحت هذه القلعة وله طريق سرّي يؤدي إلى النهر، كان المدافعون يستخدمونه ليلاً لجلب الماء من النهر، ولهذا سمّي بـ(باب السرّ) وسمّي كذلك بـ(باب عين كبريت) لوجود عين كبريت قربه شمال القلعة.

يمتد السور من قلعة باشطابيا محاذياً لضفة النهر الغربية ويمر بمرقد الإمام يحيى بن القاسم، ثم بآثار قصر (قره سراي) أي السراي الأسود اللذين يعودان بتاريخهما إلى عهد بدر الدين لؤلؤ حاكم الموصل. وبقيت هذه الأقسام من السور حتى باب الجسر سالمة في معظم أجزائها، لكنّ قيام بعض الناس برمي الفضلات ومخلفات البناء في النهر شوّه منظر السور وغطى على أقسام منه. وكنتُ قد اقترحت في أوقات عديدة مد طريق كورنيش جديد تحت السور من باب الجسر أو الجوسق جنوباً حتى حاوي الكنيسة شمالاً، وهذا المشروع السياحي سوف يظهر جمالية سور الموصل القديمة ويمنع تشويه معالمه فضلاً عن تخفيف الازدحام وسط المدينة القديمة. أو على الأقل تجميل ضفة النهر وتسوية الأتربة التي تغطي أجزاء السور.

يقع باب المشرعة بعد الجسر الخامس بقليل وهو الذي جددته بلدية الموصل سنة ١٩٨٢م، وسمّي هذا الباب بأسماء عدة منها (باب شط المكاوي) لكونه يؤدي إلى محلة المكاوي القريبة منه، و(باب شط الحصى) لوجود الحصى على حافة النهر. وكان الأهلون وسقاة الماء يستخدمونه لجلب الماء من النهر، وتقوم النسوة بغسل وتنظيف الملابس وأدوات الطبخ على حافة النهر قبل إنشاء مشاريع الماء. وقرب الباب يقع جامع الشهوان أو شيخ الشط وفي داخله المدرسة الكمالية وهي من المدارس الدينية القديمة المشهورة في المدينة.

ويستمر السور جنوباً تتخلله فتحات استخدمها سكان المناطق القريبة للخروج إلى النهر لغرض السباحة وقيادة الزوارق أو لرمي الأوساخ أو لجلب الماء، منها الفتحة القريبة من باب القلعة المسماة محلياً بـ(باب شط الجومي) وتؤدي هذه الفتحة إلى مسجد شط الجومة في محلة القلعة.

وفي المكان المنخفض النازل من محلة الميدان قرب الجسر الحديدي (نينوى) يقع (باب القلعة) الذي كان يؤدي إلى القلعة العثمانية (إيج قلعة) أو القلعة الداخلية التي كانت قائمة في مكان بلدية الموصل القديمة وموقف السيارات الحالي. وكانت مقراً للوالي العثماني ومجلس المدينة، ويحيطها سور وخندق من المياه. واستخدم هذا الباب من السكان لرسو الزوارق والأكلاك ولتفريغ البضائع والأخشاب القادمة من تركيا أو شمال العراق في سوق الخشابين القريب منه.

ويقع (باب الجسر) أي الجسر الخشبي العثماني القديم مقابل فتحة سوق الملاحين الحالية، إذ لم يكن الجسر الحديدي مقاماً في ذلك الوقت. وكان الباب محاطاً بعدد كبير من الأبنية القديمة مثل مقهى الثوب، والخانات التي يؤمها المسافرون والقادمون إلى المدينة من الخارج مع أحمالهم وبضاعتهم. وكان هذا الباب ممراً لقوافل التجارة والجمال والأغنام التي تصل إلى المدينة يومياً من الشمال والشرق، وتقف عنده الأكلاك والعبارات والزوارق لتفرغ حمولتها من الفواكه والحبوب القادمة من تركيا وشمال العراق. وقد رفع باب الجسر والأبنية المجاورة له بعد إنشاء الجسرين البريطاني والملك غازي ومن بعدهما شارع الكورنيش الحالي، وبقيت القناطر المتممة للجسر الخشبي في الساحل الأيسر حتى

يمتد السور من قلعة باشطابيا محاذياً لضفة النهر الغربية ويمر بمرقد الإمام يحيى بن القاسم، ثم بآثار قصر (قره سراي) أي السراي الأسود اللذين يعودان بتاريخهما إلى عهد بدر الدين لؤلؤ حاكم الموصل. وبقيت هذه الأقسام من السور حتى باب الجسر سالمة في معظم أجزائها، لكن قيام بعض الناس برمي الفضلات ومخلفات البناء في النهر شوه منظر السور وغطى على أقسام منه.

بداية الستينيات.
هدمت أجزاء السور الذي يترك ضفة النهر ويتجه إلى الغرب من باب الجسر، فيحيط بعدد كبير من الخانات والأسواق، ويخترقه (باب الطوب) في الساحة الحالية التي تلتقي فيها أسواق الملاحين والعطارين والقصابين القديم والصوافة والتي يشغلها الآن باعة الخضراوات المتجولون. وكان يسمى بباب القصابين لكونه يربط بين سوق القصابين القديم والمجزرة القديمة (المسلخ) خارج السور حيث كانت تنحر فيه الذبائح، ثم سمي في فترة لاحقة بـ(باب الطوب) لوجود مدفعين في واجهته. ويقع جامع باب الطوب خارج الباب.
يستمر السور المهدم حالياً إلى بناية السراي و(باب السراي) الذي فتحه والي الموصل سليمان باشا الجليلي سنة ١١٩٠هـ/ ١٧٧٦م، ويقع السراي الذي استخدم مقراً للوالي داخل الباب الذي فتح في السور للخروج من السراي إلى خارج المدينة مباشرة قريباً من مكان سينما الملك غازي القديمة. ثم يتجه باتجاه السور الذي رممته بلدية الموصل ويقع الآن خلف عمارة الشواف وساحة وقوف السيارات الحالية في باب الطوب، وهذا الجزء من السور ما زال قائماً ويمتد بين البيوت نحو محلة التنتنة في باب لكش. وعلى الرغم من أن المجلس البلدي قد منع الهدم والبناء ضمن مسافة (٦) أمتار من جانبي السور، فإن تجاوزات حصلت من قبل البعض وأدت إلى فقدان أجزاء أخرى مثل برج الثلمة الذي سيأتي وصفه لاحقاً.
ينتهي السور القائم حالياً بين البيوت في الجهة الغربية من زقاق التنتنة، حيث كان (باب لكش) يقع في المكان الذي أمام جامع بلال الحبشي الحالي. وكان مخفر باب لكش في مكان الجامع المذكور، وجامع باب لكش على ربوة خارج الباب. سمّي الباب بهذا الاسم بسبب بيع القش خارجه وتلفظ باللهجة البدوية (الكش).
يمر السور بعد باب لكش بين بيوت محلة الشيخ محمد وحتى منطقة (الثلمي) وهي ثلمة في السور حدثت أثناء حصار نادر شاه للموصل وبناها الموصليون ليلاً. وكان الأهالي يخرجون منها في الظروف الطبيعية مع حيواناتهم للرعي خارج المدينة يومياً. وفي صدر الزقاق المهمل بجوار مديرية الرقابة المالية يوجد جزء ظاهر من السور وبرج أسطواني من أبراجه الأربعة عشر ، وقد أزيل جزء كبير من البرج حديثاً. وأجد من الضروري تجميل هذه المنطقة بإزالة الأبنية القديمة منها، وتسييجها وجعلها مشهداً لزيارة الناس والسائحين في المستقبل.

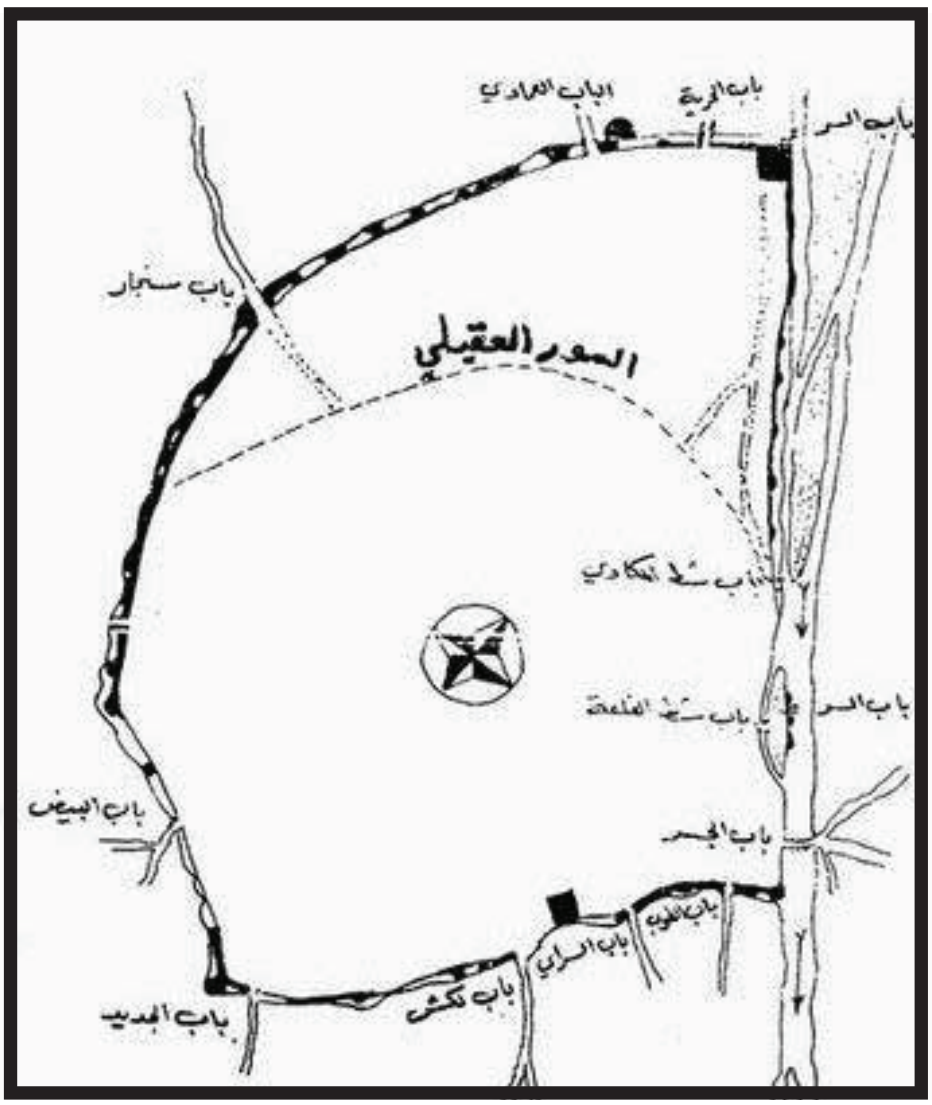

يمتد السور من هذا المكان نحو محلة الباب الجديد ماراً بين البيوت وخلف محلة الاشمطة، ثم يحيط بحمام باب الجديد ويظهر خلف جامع البشير الحالي تاركاً الجامع خارج السور. وفي حافة شارع الفاروق اليمنى كان ينتصب الباب الجديد الذي بناه أبو الفضائل علي العمري سنة ١١٣٨/١٧٢٥م بدلاً من باب العراق. وعبر شارع الفاروق يستمر السور الظاهر حالياً تحت محلة البدن، وينعطف عند المدرسة العراقية القديمة باتجاه الشمال الغربي نحو محلة باب البيض.
في منعطف السور وعند ساحة الصديق يوجد برج آخر للسور على شكل مستطيل وليس أسطوانياً كما عهدنا، في حين يستمر السور تحت محلة البدن التي تعني تسميتها بدن السور أي جسمه، ومن الغريب أن البدن أطلق على هذه المحلة فقط دون جميع المحلات التي يمر بها بدن السور !! وفي أعلى الطريق النازل من البدن يوجد جزء كامل من أعلى السور وفيه مزاغل الرماة وما زال قائماً لحد اليوم.
وفي مدخل الشارع الحالي المؤدي إلى محلة باب البيض كان ينتصب (باب البيض) الذي جاءت تسميته من بيع البيض خارجه، وسمي قديماً بـ(باب كندة) ، وتشاهد حجارة السور الكبيرة بوضوح على الجانب الأيسر من مكان الباب. أما باقي أجزاء السور الذي يتجه نحو الغرب من هذا المكان فإنه مرمم بحجارة تختلف عن حجارة السور البيضوية والمستطيلة الكبيرة الحجم.
وينعطف السور ثانية عند برج أو (قلعة العكس) نحو الشمال متجهاً إلى باب سنجار، وينخفض السور تدريجياً بعد البرج ويختفي تماماً عند شارع نينوى وباب سنجار ويظهر عند البارودخانة.
في موقع التقاطع الحالي لباب سنجار كان (باب سنجار) المؤدي إلى بلدة سنجار، وسمّي في العهد الأتابكي بـ(باب الميدان) لوجوده غرب ميدان تدريب الجيش. وبتعقيب مسار السور المهدم نمر بسوق البورصة والإعدادية المركزية حتى (البارودخانة) التي هي من بقايا السور القديم، وكانت تستخدم مكاناً لصنع البارود في العهد العثماني، وبجانبها بقايا من السور بحجارته الكبيرة وفي المكان الذي تشغله حالياً محطة وقود ابن الأثير كان يقع (الباب العمادي) الذي سمّي نسبة إلى عماد الدين زنكي حاكم الموصل، وكان يسمى كذلك بـ(باب الجصاصين) لأنه يؤدي إلى أكوار الجص خارج المدينة. وآخر باب في السور كان يسمّى (باب الحرية) يقع على الشارع المجاور لباشطابيا، وعرف بـ(باب الوباء) عندما اجتاح الطاعون مدينة الموصل قديماً فأغلق خوفاً من المرض، ثم أعيد فتحه بعد سقوط السلطان عبد الحميد وتحرر الأتراك سنة ١٩٠٨م.
وفي الأخير أتمنى أن يأتي اليوم الذي يعاد فيه كشف سور الموصل القديمة دون عوائق تحجب النظر، وتقام أبواب مشابهة للصور المتيسرة في باب لكش وباب الجديد وباب البيض لتكون معالم حضارية بارزة تحكي قصة هذه المدينة العربية العريقة.

المصادر والمراجع

١. أحمد الصوفي، تاريخ بلدية مدينة الموصل، ج١، مطبعة الجمهور، الموصل، ١٩٧٠.
٢. سعيد الديوه جي، تاريخ الموصل، ج١، مطبوعات المجمع العلمي، الموصل، ١٩٨٢.
٣. سعيد الديوه جي، تاريخ الموصل، ج٢، مطبعة دار الكتب – جامعة الموصل، الموصل، ٢٠٠١.
٤. سعيد الديوه جي، بحث في تراث الموصل، مطبعة دار الكتب –جامعة الموصل، الموصل، ١٩٨٢.
٥. قصي حسين آل فرج، محلة باب الطوب، مكتب عمر، الموصل، ٢٠٠٠.
٦. أزهر العبيدي، جادة باب لكش، ط١، مكتب الصباح، الموصل، ١٩٩٩.

المصطلحات

١. المشرعة: كلمة مشتقة من الشريعة وهي مكان رسوّ الأكلاك والزوارق قديماً.
٢. الجومة: قيل أنها صرة مخلفات المرأة النفساء التي يرسلها أهلها لترمى في النهر من هذه الفتحة، وكانت تلك عادة شعبية من معتقدات أناس ذلك الزمان. وتعني الجومة باللهجة الموصلية النول الذي يستخدم في النسيج أيضاً.

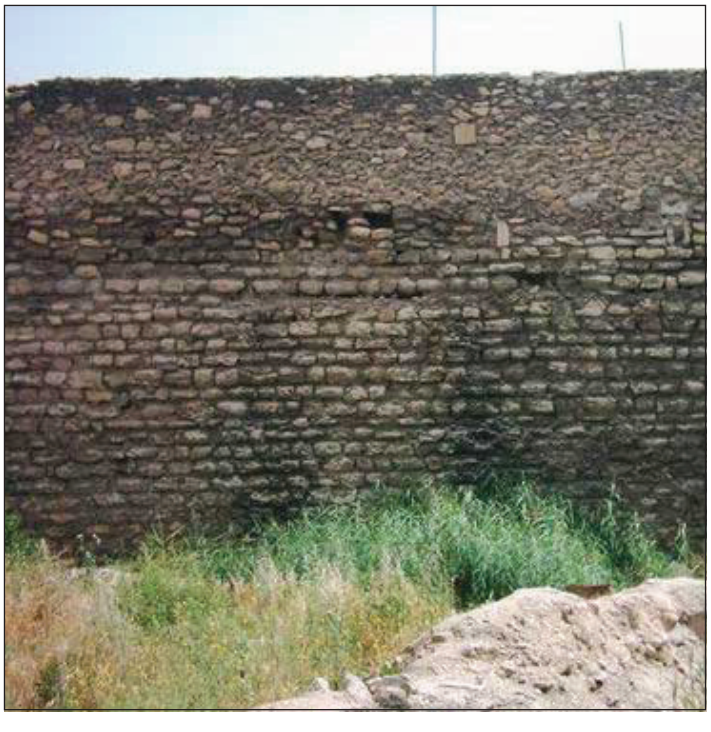

بين القبانجي واحمد رامي

احمد رامي

القبانجي في شبابه

د.

محمد القبانجي هذا الاسم الكبير في عالم الغناء والذي نال اعجابا منقطع النظير وشهرة عربية واسعة ، وكان صاحب طريقة في هذا اللون صار لها اتباع ومريدون وعشاق ، حتى صار يمثل جزء من ذاكرة العراق التراثية والشعبية ، حيث ما زالت الاسماع تطرب لقراءاته واغانيه ، فالقبانجي مطرب من طراز رفيع ومبدع ومجدد وشاعر ذي بديهة رائعة بارع في الإلقاء الغنائي وفي التقطيع النغمي، وهو صانع مقامات، وأنها تشكل بحد ذاتها إرثاً بليغاً في الفن والثقافة ، ويكفي القبانجي تفرده بالمقام الأول في الغناء في زمن حفل بظهور فطاحل الغناء والمقام أمثال: رشيد القندرجي ونجم الشيخلي ومحمود الخياط وأحمد الكفر وأحمد الموصلي وحسن خيوكه وعبد القادر حسون وأحمد موسى ويوسف عمر وعبد الرحمن خضر وعباس كمبير وجميل الاعظمي وجميل البغدادي ويوسف حريش ، ويكفيه عزاً وشرفاً أنه كان المطرب الذي صان المقام من محنة الارتزاق والتكسب في زمانه، فقد كان (رحمه الله) محسناً وجليل المنزلة، عاصر كبار شعراء العراق والأمة واغتنى من شاعريتهم وإبداعهم وغنى أشعارهم وشاركهم في همومهم الوطنية، وظل صوته يصدح للوطن ووحدة العرب ولفلسطين ، وقد كانت زيارات المرحوم القبانجي لبلدان كثيرة أكسبته حسن المعاشرة وأعطته موقعاً متميزاً في العلاقات الاجتماعية والفنية، فهو محترم أينما يكون وهو بحق سفير بلا سفارة كما أعبر أنا دائماً عن فناننا الكبار، فحين التقى بأم كلثوم في القاهرة وخرج مع أحمد رامي يتمشيان على كوبري النيل سأل الأستاذ القبانجي أحمد رامي : ام كلثوم هذه الفنانة الرائعة هل تحب؟ ، نظر أحمد رامي اليه نظرة شاعر لفنان وقال: كيف يبقى خالياً من له عين وقلب؟ ، صاح القبانجي : «الله.. أكمل يا أحمد»، رد عليه أحمد رامي : لا أكمل البيت الا اذا أعطيتني وعداً بان تغنيه لي، قال القبانجي: أغنيها ، وراح أحمد رامي يكتب ثم يقرأ للقبانجي هذه الأبيات:

غلب الشوق غلب
والهوى شيء عجب
لائمي في حبها
أي قلب ما أحب
أي طير لم ينح
من حنين وطرب
أي غصن لم يمل
إذ نسيم الفجر هب
كيف يبقى خالياً
من له عين وقلب

وعلى كوبري النيل غنى القبانجي هذه الأبيات بيتاً.. بيتاً وهو يعيدها ويتجلى بها حتى اجتمع الناس وراحوا يصفقون له ويطلبون الإعادة ، فقد أقام حفلاً غنائياً بلا تذاكر دخول وكان الشعر لرامي والصوت واللحن للقبانجي والسامعون ناس اجتمعوا بلا موعد ليطربوا ويستمتعوا بفن عال لا حدود له

ذاكرة عراقية

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

مدير التحرير: علي حسين
هيئة التحرير: باسم عبد الحميد حمودي ـ رفعت عبد الرزاق
التصميم : نصير سليم التصحيح اللغوي: مروان عادل

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون